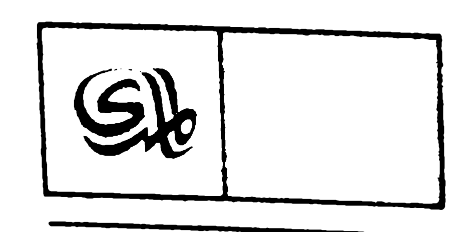


محمد كامل الخطيب
اليوتوبيا
المفقودة
مدونة ابو عبدو



تـــأليـــف :محمد كامل الخطيب

عنوان الكتـــاب :اليوتوبيا المفقودة

الناشـــــــــر :المدى

الطبعـــة الأولى :دار المدى ٢٠٠١

Author :Muhammed
Kamel Al- Khateeb

Title : The missing Utopia

Al- Mada P.C.

First Edition:year 2001

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .

Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

محمد كامل الخطيب

اليوتوبيا المفقودة



إهداء

إليهما...

إليهما...

إليهما، حيث هما:

في المقبرة، أو في الخيال

إليهما...

إليهما، حيث هما:

الفكرة النبيلة التي غاصت في الوحول

الفتاة النبيلة التي ماتت في الوحول

إليهما، حيث هما.

إليهما...

إليهما.

مقدمة

تنطلق الأبحاث والدراسات، عادة، من ظواهر موجودة، جزئية أو ملاحظة. وغالباً ما تنطلق مثل هذه الدراسات أو الأبحاث من ظواهر إحصائية كمية، متكررة، بمعنى وجود مواد كثيرة تشكل «ظاهرة» تلفت النظر بتكرار واضطراد حدوثها، فتستقصى هذه الظاهرة، وتجمع، ثم تدرس.

أما بحثنا هذا - اليوتوبيا المفقودة:اليوتوبيا العربية الحديثة - فينطلق من اتجاه معاكس. إذ أنه ينطلق من «ظاهرة غير ظاهرة»، أو غير موجودة، أو تكاد تكون غير موجودة، على الأصح، في الثقافة العربية الحديثة، وبمعنى آخر فإن بحثنا ينطلق من /ويحاول أن/ يدرس غياب ظاهرة، أو شكل فني، وليس وجوداً ظاهراً، متكرراً ولافتاً، أو وجوداً مضطرد الحدوث وغزيراً من الناحية الإحصائية. فربما تكون دلالة غياب شكل فني، أو جنس أدبي، معادلة لدلالة غياب «مضمون» أو رؤية ما في الثقافة المعنية.

هذه الظاهرة الغائبة - إن صح الكلام - والتي نحاول «تقصيها» أو دراسة غيابها، ثم دلالة هذا الغياب وأسبابه ونتائجه، هي ظاهرة «الفن اليوتوبي» كجنس أدبي مستقل، محدد وواضح المعالم، على الرغم من

أن الفكر اليوتوبي، والتخييل اليوتوبي، عموماً، موجودان ويتدسسان في مختلف جوانب وحنايا التفكير والتخييل البشريين، وعلى مر الأزمان واختلاف الأمكنة، بدءاً بحلم الإنسان الأول بعالم آخر، ووصولاً إلى مدرسة فرانكفورت الفلسفية النقدية في القرن العشرين، والتي تفتح باباً واسعاً للمستقبل واليوتوبيا عبر «مبدأ الأمل» الذي تركز عليه، ومروراً بروايات الخيال العلمي، وأفكار المدن الفاضلة، وتخطيطات المدن المستقبلية، ووصولاً إلى آخر يوتوبيا روائية كتبها، في القرن العشرين ألدوس هكسلي (الجزيرة، ١٩٦٩).

فاليوتوبيا، والفن اليوتوبي، والتخييل اليوتوبي[1]، هما ـ ضمن المعنى الذي نفهمه، ونرى إلى موضوع البحث من خلاله ـ هما نوع من التفكير ـ التخييل، الرغبي المستقبلي، الذي ينطلق من /ويحاول أن يتجاوز آلام ومصاعب {الواقع ـ الحاضر }ورسم، أو تخيل، صورة أعدل وأجمل وأبهى لعالم يمكن تشييده على هذه الأرض، إنه حلم الإنسان الأبدي، ومقصد كفاحه في سبيل السعادة.

خلاصة القول الذي تحاول هذه الدراسة ـ مع نصوصها ـ إعلانه هي:

إذا كان المحذوف في كتاب كاتب، أو كلام شخص ما، أكثر دلالة من المكتوب/ أو من المقيول، فإن هناك دلالة هامة يمكن استخلاصها من افتقاد جنس أدبي في ثقافة عريقة، ومتجددة مثل ثقافة عصر النهضة العربية الحديثة، دلالة ربما تكون أكثر بعداً و أهمية من دلالة «وجود» ظواهر وأجناس أدبية أخرى، جرى استنباتها في الثقافة العربية الحديثة، مثل أجناس الرواية والمسرح والقصة القصيرة وغيرها. والفن المحذوف،

---

[1] حددنا مفهوم اليوتوبيا وصيرورة اشتقاقها وتاريخها في كتاب «الروايه واليوتوبيا ـ دمشق ١٩٩٥».

أو المفقود، كما لعلكم لاحظتم، هو: الفن اليوتوبي.

في سبيل توضيح ما تقدم، قمنا بدراسة التفكير اليوتوبي في الثقافة العربية الحديثة، ثم قمنا بدراسة بعض مظاهر التخييل اليوتوبي في هذه الثقافة، وألحقنا الدراسة بمجموعة من النصوص - اليوتوبية الطابع، على قلتها، أملين أن يعتبر هذا الكتاب جزءاً ثالثاً ومتمماً لكتابينا السابقين:

«انكسار الأحلام - ١٩٨٧» و«الرواية واليوتوبيا - ١٩٩٥»، فهذه الكتب الثلاثة، على توزع تواريخها، وتنوع موضوعات بحثها، إنما تعالج مضموناً واحداً هو: الحلم البشري، والحلم البشري يجمع دائماً بين الواقع والفن، بين الحقيقة والخيال، يجمع بين الخرافة والعلم بين الشخصي والموضوعي، وهذا الحلم البشري هو: اليوتوبيا.

محمد كامل الخطيب

دمشق ٢٠٠١

القسم الأول

اليوتوبيا في الفكر العربي الحديث

١- اليوتوبيا في الفكر العربي الحديث

-١-

ربما يمكننا اعتبار كل تفكير، أو تخييل، بشري حالم، أو مبشر، أو مريد، لنمط آخر، أو مغاير، ونحو ما يعتبر الأحسن، نمطاً من أنماط التفكير، أو التخييل اليوتوبي، وسواءً أتبدى هذا التفكير، أو التخييل، على شكل يوتوبيا فنية أو روايات، أو مذاهب فكرية أو دينية، أو فلسفات وأحلام ولوحات، أو رؤى ومسرحيات، أو مشاريع للتغيير الاجتماعي الخاص، أو الإنساني العام، وبهذا المعنى فإن جمهورية أفلاطون هي يوتوبيا، مثلها مثل يوتوبيا توماس مور، مثل فكرة الاشتراكية، على الرغم من تفريق الماركسيين بين الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية، أو مثل فكرة الجنة وصورتها في الأديان، أو مثل فكرة الوحدة العربية، فهذه الصور والأفكار والمشاريع والتخيلات، تحاول كلها تجاوز «واقع» غير مرضٍ، واقتراح عالم، أو وضع آخر بديل، عالم، أو وضع، أفضل، وبعبارة مختصرة، فكل فكر، أو تخييل يحاول أن يتجاوز «الواقع» على الرغم من أن مصدره الأساس هو الواقع الإنساني المعاش، إلى واقع أفضل، عبر اقتراح أو رسم أو تخيل عالم بديل آخر، كل ممارسة من هذا النوع، هي، أو هو فكر، أو

تخييل يوتوبي، واعتقد أن مثل هذا التحديد لليوتوبيا ينزع عن هذه اللفظة تلك السمة الساخرة والمتهكمة التي وصمت بها، أو تلك الهجائية المضمرة التي يريد كثيرون إضفاءها عليها، سواء أكان ذلك عن سوء نية، أو سوء قصد، أو حتى عن سوء معرفة.

-٢-

لعل غياب الفن اليوتوبي، كجنس أدبي محدد، مثل جنس الرواية مثلاً، وغياب الأبحاث اليوتوبية، أو قلتها، من أهم الغيابات الملاحظة وذات الدلالة في الثقافة العربية الحديثة، وإن بقي الفكر اليوتوبي الاجتماعي موجوداً، بطبيعة الحال، فثمة عدد قليل من الأعمال اليوتوبية الفنية، وهي أعمال سنقدمها في القسم الثاني، وبعد أن نعرض للأعمال الطويلة في الفصل الثاني، لكن التفكير اليوتوبي موجود سواء بأشكاله الفكرية، أم الاجتماعية، أم السياسية، أم الدينية، وسنعرض محاور التفكير اليوتوبي في الفكر العربي الحديث بأشكاله المختلفة فيما يأتي.

-٣-

نبدأ باليوتوبيا الدينية، لأنها الأكثر تداولاً وانتشاراً، وربما الأقدم في الثقافة والمجتمع العربيين. تقوم اليوتوبيا الدينية في الثقافة العربية الحديثة على محورين هما: الماضي أولاً، وما بعد الواقع، أو ما بعد الحياة، ثانياً.

تنطلق اليوتوبيا - الدينية - انطلاقاً معاكساً لانطلاق اليوتوبيا

الحديثة عموماً، واليوتوبيا الأوروبية تحديداً، فإذا كانت اليوتوبيا الحديثة تنطلق من الواقع لتبني عالماً مستقبلياً - تخييلياً، عالماً قائماً في «اللا مكان»، لكنه عالم يستطيع الإنسان تشييده[1]، فإن اليوتوبيا الدينية العربية - ونستطيع أن نسميها اليوتوبيا الإلهية، تنطلق من مكان محدد هو الجزيرة العربية، مهد الدعوة الإسلامية، وموطن الوحي الإلهي، وتقف عند ذاك الزمن، وعند هذا الوحي، اللذين مضى عليهما أكثر من ألف وخمسمائة عام، معتبرة أن ذاك العصر هو العصر الذهبي الذي يجب أن يعود إلى الحاضر، أو أن يعود الحاضر إليه، وبمعنى آخر، فإن هذه اليوتوبيا تنظر إلى الماضي بدل أن تنظر إلى المستقبل، وتنظر إلى الله بدل أن تنظر إلى الإنسان، وبإمكاننا أن نقول: إنها تنتظر الله وتعتمد عليه، بدل أن تنتظر، أو أن تعتمد على الإنسان، مثلما هي تنظر إلى «دار الإسلام» بدل أن تنظر إلى «دار الإنسان»، أو إلى اللا مكان. إنها يوتوبيا ماضوية، نوستالجية، تحن إلى «فردوس مفقود»، بدل أن ترنو إلى «فردوس مأمول»، يوتوبيا تعالج، مثل أي يوتوبيا، بؤس «الواقع - الراهن» لكن عبر الدعوة إلى إعادة ما مضى بدل التفكير في تشييد الجديد. وخلاصة القول: إنها دعوة مثلها الأعلى يقف وراءها، ولا يتراءى أمامها، وهي بذلك تنتمي عموماً إلى دعوات ومفاهيم ما قبل ظهور العصر الحديث وبروز مفاهيم التقدم وفاعلية الإنسان، بل ومسؤوليته عن وفي بناء عالمه، ومعروف أن هذه المفاهيم الجديدة بدأت في الاتضاح في العصر الحديث، وفي أوروبا تحديداً.

---

[1] بالطبع فإن الرؤية الفلسفية المحركة لمثل هذا النوع من التفكير . أو الانطلاق من الماضي إلى المستقبل . هي مفهوم التقدم . وهو مفهوم حديث .

الجانب الثاني من هذه اليوتوبيا، أي الجانب المتجاوز للواقع، أو للحياة، هو «صورة الجنة» وكثيرة هي الكتب التي تصف الجنة في التراث العربي، وسنقدم نصاً منها في القسم الثاني، فالجنة هي يوتوبيا هذا الفكر المثلى، حيث الجنة هي «المكان» الذي لا يشبه أي مكان. والزمان الذي لا يشبه أي زمان، هناك حيث ينعم الإنسان - المؤمن والمطيع في الدنيا - بالراحة والسعادة الأبديتين، مستمتعاً بكل ما هو محروم منه في هذه الحياة الدنيا، من قصور وفرش ولبن وخمر وعسل ونساء وطعام لذيذ وراحة أبدية، وعلى الرغم من أن هذه الكتب تراثية، فإننا نستطيع اعتبارها معاصرة لأنها ما تزال تفعل فعلها الكبير في الوجدان والمخيلة العربيين المعاصرين.

من الواضح الجانب الرغبي والتعويضي في مثل هذا النمط من التفكير اليوتوبي، لكن المشكلة هذه اليوتوبيا الأولى أنها وعد يأتي بعد الموت، والمشكلة الثانية أنها تقتصر على «المؤمنين» بينما يحرم منها غير المؤمنين.

وبهذا المعنى نقول إنها ليست خلاصاً شاملاً للإنسان.

مشكلة أخرى لهذه اليوتوبيا، وهي أنها لا تفعل شيئاً للإنسان في هذه الحياة الدنيا، أي أنها لا تفعل شيئاً للحاضر والمستقبل الدنيويين سوى الترهيب والترغيب، بل وتعتبر، هذه اليوتوبيا، الحياة كلها جسر عبور مؤقتاً وهشاً لما بعد الحياة، لما بعد الموت، حيث الحياة الحقيقية، وبمعنى آخر، فهذه الحياة الدنيا هي الموت، والموت أو ما بعد الموت، يصبح هو الحياة.

-٤-

اليوتوبيا الثانية المقابلة لهذه اليوتوبيا الدينية في الثقافة العربية الحديثة، هي اليوتوبيا الاشتراكية، وهي يوتوبيا دنيوية، بشرية، بدأت ملامحها الجديدة الأولى تتسرب إلى الثقافة والمجتمع العربيين منذ أواسط القرن التاسع عشر - على الرغم من أن كل الأفكار الكبرى، بما فيها الأفكار الدينية في التاريخ البشري كانت تشير إليها - مع بداية تسرب الأفكار الأوربية - العالمية الجديدة، وبلغت مداها، ومحاولات تحقيقها، في النصف الثاني من القرن العشرين.

تتأسس هذه اليوتوبيا - كما هو معروف - على فكرة العدالة، وعلى إمكانية الإنسان في تشييد عالمه، بل ومسؤوليته في ذلك، إنها يوتوبيا «المجتمع» الاشتراكي حيث «لكل إنسان حسب حاجته، ومن كل إنسان جهده» وتجد هذه اليوتوبيا أوضح تعبير عن نفسها في النظرية الماركسية، وباقي الأفكار الاشتراكية، على اختلاف توجهاتها ورؤاها وطرقها في تحقيق هذا المشروع المستقبلي - اليوتوبي.

بالطبع قزمت هذه اليوتوبيا، في كثير من الأحيان، إلى مجرد مطلب سياسي في هذا البلد أو ذاك، كما قزمت اليوتوبيا الدينية إلى مجرد دعوات مذهبية أو طائفية، أو ربطت أحياناً بأحداث وتغيرات جرت في أماكن معينة من العالم، وخلال القرن العشرين خصوصاً، لكن فكرة اليوتوبيا الاشتراكية هي أعمق من ذلك في الفكر الإنساني، وأبعد مدى في الزمن، وفي كل الثقافات، أي في الماضي والحاضر والمستقبل، بل هي أبعد مدى، وأعمق غوراً في المخيلة والضمير، بل والأخلاق البشرية، فيوتوبيا العدالة الإنسانية - في هذه الحياة بالذات - يوتوبيا

الاشتراكية، قائمة، بل ومتحركة في المخيلة والذهن البشريين منذ مدة طويلة، وما زالت مستمرة، وعلى الأرجح، فإنها ستبقى ما دام هناك «واقع غير عادل» أي ما دام هناك ظلم واضطهاد وفقر ومرض وتساؤل. وحتى اليوتوبيا الدينية تندرج بشكل ما ضمن هذا الطرح، ألم يرد في القرآن: «وللإنسان ألا يجوع فيها وألا يعرى»؟!.

-٥-

هناك يوتوبيات دنيوية أخرى، لكنها أضيق مدى، إنها يوتوبيات «سياسية» إن صحت التسمية، مثل فكرة الوحدة العربية، أو القومية السورية، أو الفرعونية المصرية، أو الفينيقية اللبنانية، إنها يوتوبيات، ليس بمعنى أنها غير قابلة للتحقيق، أو أنها مستحيلة، بل بمعنى أنها يوتوبيات «مرحلية» لها طابع المشاريع والأحلام السياسية، يوتوبيات تريد أن تبني، أو أن تستعيد زمناً مفقوداً، أو فكرة محركة، في سبيل حياة أفضل لمجموعة بشرية محددة (العرب ـ السوريون... إلخ) وبهذا المعنى فإننا لا نستطيع اعتبارها يوتوبيات إنسانية شاملة محركة للتاريخ الإنساني العام، فهي رد على واقع اجتماعي ـ سياسي محدد، ومحاولة لتجاوز هذا الواقع ـ الوضع، وضمن هذه الحياة الدنيا، وعلى هذه الأرض، بل وفي هذه «البلاد» بالذات، بل وفي زمن قريب جداً، وهذا ما يفصلها عن اليوتوبيا الدينية، واليوتوبيا الاشتراكية، في عموميتهما وشموليتهما الإنسانية.

-٦-

يلاحظ أن اليوتوبيا الدينية، واليوتوبيا السياسية، مع ملاحظة عدم وجود يوتوبيا فكرية حديثة، تفعلان فعلهما وتؤثران في الثقافة والمجتمع العربيين، فالسياسة أكثر تأثيراً من الفكر في المجتمع العربي، أي أن اليوتوبيات المتوجهة إلى الماضي، أو إلى المستقبل القريب، هي الأكثر فاعلية، من اليوتوبيات التي تحاول أن تبني، أو أن تصوغ عالماً إنسانياً شاملاً، وسواء أكانت هذه اليوتوبيات مصوغة عبر مذاهب فكرية وفلسفية، أو كانت مصوغة عبر يوتوبيات تخييلية فنية متقدمة، شأن المذاهب والفلسفات واليوتوبيات الأوروبية المحدثة، وربما نستطيع هنا أن نستثني الجنس الروائي، وهو جنس أدبي ذو طابع يوتوبي، حققت فيه الثقافة العربية تقدماً ملحوظاً في النصف الثاني من القرن العشرين.

-٧-

ربما كان نمط التفكير الديني، الغيبي، أي نمط التفكير المتوجه إلى الماضي، وإلى ما فوق الواقع في تفكيره وتخييله اليوتوبي، وهو نمط التفكير الذي يكاد يكون مستولياً على آلية الذهنية الثقافية والاجتماعية العربية، بشكل عام، هو الحاجز الذي يمنع المخيلة والفكر العربيين من إبداع يوتوبيات فكرية وتخييلية مستقبلية جديدة، يوتوبيات تصوغ للبشر، كبشر، وللإنسان كإنسان، شكل، أو مشروع حياة مستقبلية جديدة، كما فعلت وتفعل المخيلة والفكر الأوروبيين ـ العالميين ـ منذ عصر النهضة الأوروبية. فالعقلية والمخيلة الأوروبية ما تزالان تصوغان، ومنذ زمن، شكل الحياة حاضراً ومستقبلاً، لأوروبا وللعالم معاً.

- ٨ -

يبدو أن الفكر والفن اليوتوبيين إنما يزدهران - عموماً - في عصور النهضة والتقدم والفاعلية والإيمان بالإنسان وقدرته ومركزيته، بل ومسؤوليته عن هذه الأرض - الحياة - وعليها، وهذا ما تحقق في أوروبا منذ نهوض البرجوازية ومشروعها في أن يأخذ الإنسان زمام مصيره بنفسه، بينما ما يزال الفكر والمجتمع العربيان - في مجملهما - وفي القطاعات الأعرض والأوسع، مصراً على ترك مصيره لقوة مفارقة أخرى، والنظر إلى الماضي كمثل أعلى، بدل النظر إلى الأمام والمستقبل، ما يزال الفكر والمجتمع العربيين - في مجملهما - مصرين على النظر إلى ما وراء الطبيعة - الحياة - بدل التحديق ملياً في هذه الطبيعة - الحياة، ما تزال القطاعات العربية العريضة ترى في الجنة[1] فردوساً موعوداً، وما تزال كتب اليوتوبيا الدينية - كتب الترغيب والترهيب (وصف الجنة، وصف جهنم، تكريه الدنيا، وصف عذاب القبر) هي التي تشكل مفهومات ووجدانات وتخييلات مغرقة في وصف الملذات، وكأنها تهرب من شقاء الحياة اليومية للمجتمعات العربية، إلى نمط حياة متخيلة لا شقاء فيها، حيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على عقل بشر!! وبهذا المعنى فهذه الكتب هي كتب معاصرة.

لكن هذه الحياة لن توجد إلا خارج هذه الأرض، خارج هذا الوجود، خارج الحاضر والمستقبل، وبهذا فإن هذه «اليوتوبيا» إنما تسهم في تعطيل الفاعلية الذهنية، الفاعلية الفكرية والتخيلية، بل وتعطل

---

١ كتب وصف الجنة وملذاتها كثيرة في التصنيف التراثي العربي، ونذكر على سبيل المثال «صفة الجنة» للإمام الأصفهاني، هذا إذا تجاوزنا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة او المنسوبة، ومعراج ابن عباس.

الفاعلية العملية، إذ استبدلتها بحماسات عصابية مرضية، للمجتمعات والثقافة العربية، إنها تسهم في تعطيل الفاعلية الإنسانية والقدرة على /أو الرغبة في/ صوغ شكل حياة مستقبلي عام وجديد للبشر، وهو ما سهمك فيه البشرية الحديثة استعداداً للقرن الحادي والعشرين، بل وتعطل الفاعلية العلمية، لأن مغامرة العلم والتكنولوجيا في النهضة الأوروبية، إنما كانت الأدوات التنفيذية للمشاريع والرؤى والتخيلات اليوتوبية الكبرى للفكر والفن الأوروبيين في عصر النهضة.

.٩.

في المقابل تصطدم اليوتوبيا الاشتراكية في الثقافة العربية الحديثة، بشكل الفكر والتخييل السائدين والمسيطرين، إنها تصطدم بشكل ومحتوى اليوتوبيا الدينية، مثلما تصطدم بشكل الحياة الاجتماعية المتخلفة عربياً، والرأسمالية عالمياً، مما يلجم الفكر عن التحرك، والمخيلة عن الاشتغال، بل والوجدان عن التعاطف مع البشر الأخرين، أو مع البشر في مأزقهم الوجودي الكوني. بدل أن يكون هذا الوجدان دافعاً للاشتغال.

لكن ذلك لا يعفي الذهنية والمخيلة العربيين من مسؤولية هذا النقص الخطير المتبدي في ضعف التفكير والإبداع اليوتوبي، وضعف المخيلة، وهو ما يتبدى في عدم وجود مدارس وإبداعات فلسفية مهمة وعدم وجود يوتوبيات فنية هامة في الثقافة العربية، بل عدم وجود مخترعات ومخترعين أو علماء عرب - في المجال العربي - ذلك أن التكنولوجيا الأوروبية كانت أحد وسائل تنفيذ وتجسيد اليوتوبيا

الأوروبية، وعندما لا توجد هذه اليوتوبيات، فلن توجد أدواتها التنفيذية كما سبق أن أشرنا.

-١٠-

تبقى اليوتوبيات الاجتماعية السياسية، وهي أفكار قصيرة الأجل تخضع للوقائع والتحولات ما بين مد وجزر، كأن يتبنى القوميون السوريون، أو القوميون العرب، الاشتراكية تارة، ثم يرفضونها تارة أخرى، أو أن يجد بعض القوميين أن «الإسلام هو جوهر الرسالة العربية الخالدة» أو كأن تنهض وتشيع فكرة ما، ثم تضعف بعض الشيء، كما حصل ليوتوبيا الوحدة العربية التي ازدهرت في الخمسينيات والستينيات، ثم تقلصت إلى مفهوم التنسيق أو التضامن العربي في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، وربما تستطيع هذه الفكرة أن تعود للنهوض في العقود القادمة، نظراً للظروف والأوضاع الجديدة في المنطقة والعالم.

-١١-

هذه هي أشكال التفكير اليوتوبي الفاعلة في الثقافة والمجتمع العربيين، وهي ما تزال تتفاعل فيما بينها، مثلما تتفاعل مع ظروفها المحلية والعالمية، ولعل نتيجة هذا الصراع تسهم في إنتاج فكر يوتوبي جديد يوجد مكاناً ومكانة للثقافة والمجتمع العربيين في مدى الإنسانية الجديد.

٢- فن اليوتوبيا في الأدب العربي الحديث

-١-

إذا كان هناك اختلاف حول وجود أصول للرواية العربية الحديثة في الأدب العربي القديم، أو عدم وجود هذه الأصول، فإن الاختلافات حول وجود أصول للفكر اليوتوبي في التراث الثقافي العربي تكاد تكون غير موجودة، ذلك أن التفكير اليوتوبي موجود في كل تراث، وإن اختلف شكل ظهوره بين تراث وآخر، أو بين زمن وآخر على الأصح، فمجرد وجود الإنسان على هذه الأرض، مع معاناته لمصاعب العيش، يكاد يكون سبباً كافياً لتفكيره وحلمه بعالم، أو حياة، أو مجتمع آخر، مجتمع تنتفي فيه هذه المتاعب المعاشة، أما كيف يُعَبر فنياً عن هذا الحلم اليوتوبي، فتلك مسألة «تقنية» تقريباً. فالتفكير اليوتوبي، إذن، قديم بهذا المعنى في التراث الثقافي العربي القديم، إنه يبدأ بالكتب التي تصف الجنة، ولدينا منها الكثير، تبدأ بالإسراء والمعراج لابن عباس، بعد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويمر برسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ومدينة الفارابي الفاضلة، وصولاً إلى رواية ابن طفيل الأندلسي «حي بن يقظان»، لكن هذا ليس موضوعنا الآن، فموضوعنا هو - تحديداً - فن اليوتوبيا العربية في العصر الحديث، أي في الأدب

العربي الحديث، أو الأدب الذي يبدأ منذ مرحلة النهضة العربية الحديثة في القرن التاسع عشر، فإذا كان الفكر اليوتوبي موجوداً، فهل وجد الفن اليوتوبي؟!.

-٢-

لا مجال للحديث هنا عن نشأة الرواية، ذات الطابع اليوتيبي، في الأدب العربي الحديث، فقد عالجنا ذلك بتفصيل في مكان آخر، ولكن سنتكلم عن بعض الأعمال الأدبية العربية ذات الطابع التخييلي، اليوتوبي، ملاحظين منذ البداية قلة هذه الأعمال، على الرغم من وفرة الإنتاج الروائي ذي البعد اليوتوبي، وخاصة في المرحلة الأخيرة.

غابة الحق - ١٨٦٥ :

ربما كان كتاب «غابة الحق»[1] لفرانسيس المراش ١٨٣٥-١٨٧٤ من أوائل الكتب ذات الطابع اليوتوبي في الأدب العربي الحديث، فالكتاب حلم طويل «بينما كنت أجول في مراسح الأوهام العقلية وأطوف في مسارح الخيالات الفكرية» يسرد فيه الكاتب حوارات ومغامرات خيالية عجيبة، لكنها تهدف إلى مغزى إنساني هو مغزى كل يوتوبيا، مناهضة سوء الأوضاع القائمة، والمطالبة بالحرية والعدالة والمساواة، ولهذا ليس غريباً أن يكون شعار الملك في هذه اليوتوبيا - الحلم «يعيش ملك الحرية» وأن يكون شعار الملكة «تحيا ملكة الحكمة» ويبدو غرض المراش

---

١ كتاب غابة الحق. تأليف الخواجا فرنسيس فتح الله مراش بحلب. طبع في حلب سنة ١٨٦٥ مسيحية بنفقة الخواجا اليان خولا اليان. طبعة أولى

واضحاً في حلمه، أو يوتوبياه، ألا وهو معارضة، بل ومحاكمة «سبل التوحش والعبودية في مملكة التمدن والحرية» وحتى لا نظن أن الأمر مجرد أوهام، فإن المراش نبهنا قائلاً: «ولئن كان خطابك هذا مبنياً على نتائج الوساوس والظنون مفعماً من أحلام المخيلة وأوهام الفكر، إلا أنه مع ذلك لا يخلو من رائحة الصواب وسمة الحقيقة، فلا بأس فيه».

وككل تفكير يوتوبي يقترح المراش عالماً جديداً مستمداً في تخيله من العالم الجديد، «أمريكا»، فالمراش يُدخل الحلم الأمريكي في حلمه الجديد.

«وإذا داخلني روح العجب لما عانيت من المنقلب، نادتني أصوات الأخبار الشائعة قائلة: هو ذا العالم الجديد (أميركا) قد رفض قبول شريعة التعبد[1] ولذلك نهض ضد هذه العادة الخشنة بالأسلحة والنار إذ عاد لا يحتمل وجود بقية لدولة التوحش على سطح الأرض».

العالم الجديد، الحلم الأمريكي[2]، مجتمع العدالة والمساواة والحرية، أو على لغة المراش أيضاً: «العقل يحكم» و«العلم يغلب» وحيث «غابة الحق حيثما تصدح بلابل العدل وتتراقص أغصان الأمان تحت سماء التمدن العظيم».

أليس كل ذلك من صفات اليوتوبيا كما وجدناها في الأدب الأوروبي الحديث؟ !.

---

[1] التعبد هنا بمعنى العبودية وعبودية الزنوج الأمريكان خصوصاً . والإشارة هنا إلى الحرب الأهلية الأمريكية عام ١٨٦١.

[2] ثمة علاقة ما بين الحلم الأمريكي . العالم الجديد ، وظهور فن اليوتيبيا . وقد فصلنا ذلك في كتاب : الرواية واليوتيبيا .

-٣-

لكن اليوتوبيا العربية تختلف في شكل تعبيرها عن اليوتوبيا الأوروبية، في كون اليوتوبيا الأوروبية غالباً ما تكون تصوراً وتخطيطاً لعالم أو مكان بديل، إنها مشروع ثقافة تبني عالماً جديداً، فهي مكان، أو عالم جديد موجود، أو يمكن أن يوجد، ويكون بديلاً للعالم القديم. أما في «غابة الحق» بل في اليوتوبيات العربية الأخرى التي سنلم بأطرافها. فاليوتوبيا مصورة غالباً على شكل حلم، حلم منام، أو حلم يقظة. انها صرخة حرية، ولا ريب أن لذلك دلالة مهمة، ربما كان من بعض عناصرها أن الكاتب العربي يعيش في مجتمع قدرته على الفعل والاكتشاف وبناء العوالم وإيجاد الأدوات التنفيذية، كالتكنولوجيا محدودة. لهذا لا يبقى له إلا لأحلام والتخيل، وصرخات الحرية، وهكذا كان الوضع التاريخي لفرانسيس المراش وأديب اسحق وعبد الرحمن الكواكبي في ظل الاستبداد العثماني، وهكذا سيكون الحال بالنسبة لكاتب آخر هو يوسف إدريس كما سنرى، وربما من خلال الوضعية ندرك سبب ندرة فن اليوتوبيا في الأدب العربي الحديث. لكن لنعد إلى يوتوبيا فرانسيس المراش «غابة الحق».

-٤-

الموضوع الأساسي في يوتوبيا المراش «غابة الحق» هو إقامة «مملكة المدنية والحرية» وهي المملكة المفتقدة في ظل الدولة العثمانية، ولهذا يروي المراش في حلمه، أو يوتوبياه، قصة الاجتماع الإنساني وقيام الممالك منذ البداية، وصولاً إلى الممالك المدنية أو المتحضرة، وبعدها

يحدد صفات أو مكونات هذه المدنية، والتي تقوم على العدل والمساواة. وبطبيعة الحال فإن كاتباً يعيش في بلاد مستعبدة سيطالب بالحرية ويتغنى بها، وهذا ما فعله المراش، والكواكبي، إذ ثمة إشارات كثيرة إلى الأمجاد القديمة ووجوب إحيائها وتحقق عالم الحرية ونبذ الاستعباد والتسلط.

بقي أن نقول أن المراش نشر يوتوبياه هذه المرة الأولى في حلب ١٨٦٥ وأنه كتبها في باريس بتأثير ثقافته الأوروبية، وربما الإطلاع على الكوميديا الإلهية لدانتي، وكذلك رسالة الغفران للمعري، وأن المراش عاش كفيفاً. فكان المجال أمامه مفتوحاً ليعوض ببصيرته وأحلامه وتخيلاته، عن فقدانه البصر الحسي.

-٥-

أم القرى - ١٩٠١ - لعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩-١٩٠٢):

يتخيل عبد الرحمن الكواكبي في هذا الكتاب اجتماعاً عقد في أم القرى «مكة» عام ١٨٩٨، وفي هذا الاجتماع يتدارس ممثلو المسلمين وضع الأمة الإسلامية. وفي مطلع الكتاب يقول:

«إنه لما كان عهدنا هذا، وهو أوائل القرن الرابع عشر (هجري) عهداً عم فيه الخلل والضعف كافة المسلمين... فدعت الحمية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيين للبحث عن أسباب ذلك، والتنقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الإسلامية.

ثم بدا أن أسعى في توسيع هذا المسعى بعقد جمعية من سراة

الإسلام في مهد الهداية، أعني «مكة» المكرمة،...»[1].

ثم تأتي بقية الكتاب، وهي جلسات ومداولات هذا الاجتماع التخيلي الذي يريد رفع شأن المسلمين وتدارك أسباب انهيارهم وتخلفهم، وواضح أن السياسة والإصلاح السياسي، وبالتالي الاجتماعي هو همّ الكواكبي الأول.

وفكرة تخيل اجتماع، ذي مطالب اجتماعية، هي جعلتنا ندرج هذا الكتاب في عداد اليوتوبيا أو أشباهها على الأقل.

ـ٦ـ

الدين والعلم والمال ـ ١٩٠٣:

«وهذا الكتاب (الدين والعلم والمال ـ فرح أنطون ١٨٧٤ ـ ١٩٢٢) هو الرواية الأولى من هذه الروايات /أي روايات نشر الأفكار التي تكون بديلاً للمقالات الفكرية م.خ/ وموضوعه معروف من عنوانه. وقد سميناه هنا (رواية) على سبيل التساهل، لأنه عبارة عن بحث فلسفي اجتماعي في علائق المال والعلم والدين، وهو ما يسمونه في أوروبا «بالمسألة الاجتماعية» وهي عندهم في المنزلة الأولى من الأهمية لأن مدنيتهم متوقفة عليه»[2].

هكذا يقدم فرح أنطون شبه اليوتوبيا، شبه الرواية هذه، وفيها يتحدث عن رسام ـ والرسام صاحب خيالات وصور ـ يزور في صحبة صديق له ثلاث مدن مثالية، نشأت من منشأ واحد، لكنها اختلفت على

---

[1] الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي. تحقيق محمد عمارة. أم القرى ص١٢٨. القاهرة ١٩٧٠.

[2] فرح أنطون. مؤلفات الروائية. تقديم د. أدونيس العكرة. دار الطليعة. بيروت ١٩٧٩ ص ٤٠.

ف ـدو ، وهذه المدن هي مدن المال والعلم والدين، أي ما يشكل أبعاد حضارة الانسانية، أو أبعاد النفس والوجود البشريين. وبعد خلافات تدمر هذه المدن بعضها بعضاً، ويكون الأمل بمجيء جيل جديد، يجمع ويوحد ما بين هذه المدن الثلاث، أي يوحد بين أبعاد الحضارة والنفس والمجتمع البشري، حيث يعيش الناس جميعاً في ظلال الإخاء والمساواة، في مكان ما، في زمن ما قادم.

.٧.

لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر. ١٩٠٧

الكتاب اليوتوبي الآخر هو «لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر»[1] أو «الغاية في البداية والنهاية» وهو من تأليف ميخائيل الصقال (١٨٥٢. ١٩٣٧) نشر في القاهرة عام ١٩٠٧ وهو لكاتب حلبي اسمه ميخائيل الصقال (١٨٥٢.١٩٣٧) ففي هذه اليوتوبيا نقرأ «رواية» تخييلة لما يجري في العالم الآخر، حيث يلتقي الصقال بأبيه في برزخ بين الزهرة والأرض، فالزهرة هي «مكان» هذه اليوتوبيا المتحيلة، وبالطبع هناك مقارنة دائمة مع العالم الدنيوي، وخلال ذلك يبث الكاتب أفكاره اليوتوبية عن كيفية اعتدال كل شيء في هذا العالم، وكيف يُملأ عدلاً وعلماً وانتظاماً وأخلاقاً، بعدما ملء جوراً واختلالاً وفساداً وتأخراً. فـ «المحبة والصدق والعفة والتواضع» وكذلك «الحق والعدل والحكمة» هي سمات، أو مكونات العالم اليوتوبي الذي يدعو إليه

---

[1] لطائف السمر في سكان الزهرة والقمر او الغاية في البداية والنهاية وضعته وكتبته أنا ميخائيل بن انطون الصقال في مدينة حلب وطبع في مصر سنة ١٩٠٧.

الصقال. لكن الصقال لا يقف عند «الأحلام الأخلاقية»، بل يسترسل، شأن أي يوتوبي (أوروبي) آخر، في أحلامه العلمية، فيحلم بما نسميه اليوم «الفاكس»، أي الات طابعة تنقل طباعتها بمثل لمح البصر، إضافة إلى اختراعات علمية أخرى. وهذا يكاد يكون استثنائياً في اليوتوبيات العربية.

خلاصة القول يرسم الصقال في روايته الخيالية، أو اليوتوبية، معالم «مدينة فاضلة» تكون بديلاً لهذا العالم الذي نعيش فيه، مدينة يلتقي الناس فيها على أسس الأخلاق والعلم والفضيلة، ولا بأس أن يكون هناك في هذه المدينة «مجمع عام يجمعون فيه على تعظيم وتبجيل الأنبياء والرسل ثم يتفقون على تلخيص عادل ينظر إلى أحوال الزمان وتقلباته في كل وقت، فيعبد الناس كلهم الله تعالى بكلمة واحدة حالة كونهم يعبدونه وهم متفرقون مشتتون، فهل يختلف أحد في تفضيل الاجتماع على التفرق والوفاق على الخلاف والقوة على الضعف»ومع الأسف، فإن هذا الكتاب، على أهميته، يكاد يكون مهملاً ومجهولاً في الثقافة العربية الحديثة.

ـ ٨ ـ

أما شبه اليوتوبيات التي استطعنا العثور عليها فسنقدمها كاملة، علها توضح شكل ـ فنياً ـ التخيل اليوتوبي في الأدب العربي الحديث، وهي تقدم مثالاً فنياً وتاريخياً لهذا الشكل الجديد في الأدب العربي، مثلما تشير إلى ندرته وفقره وهي:

١ ـ «سياحة العقل» لفرانسيس المراش أيضاً، وقد نشرها عام

١٨٧١، وهي رؤيا تصور الشر الموجود في هذا العالم، ومن ثم الأمل بقدوم مملكة التمدن إلى الأرض قريباً.

٢ـ «العهد الجديد»: ١٨٧٩ ـ لأديب أسحق (١٨٠٦ـ١٨٨٤) وهي دعوة وحلم بمجتمع قادم تسود فيه أفكار الثورة الفرنسية من حرية وعدالة ومساواة.

٣ـ «جمهورية فرحات» ليوسف إدريس (١٩٢٧ـ١٩٩١) وقد نشرها في عام ١٩٥٦ وهي حلم يقظة في شكل قصة قصيرة لصف ضابط في الشرطة يعيش، في الآلام البشرية، حالماً بعالم سعيد آخر يكون بديلاً لعالم الآلام الذي تعيش فيه بلاده ويعانيه في عمله وعيشه.

بقي أن نلاحظ غلبة هم تصوير التوحش الإنساني، وبالمقابل حلم التمدن والتحرر عند المراش وأديب اسحق في القرن التاسع عشر، ولهذا يكثر من وصف التوحش والتأخر، بينما كان هم العدالة الاجتماعية والحياة الكريمة، هو الغالب لدى يوسف إدريس في القرن العشرين، أما ميخائيل الصقال فقد كان همه الأساسي هماً أخلاقياً واجتماعياً وتربوياً، إضافة إلى تخيلاته وتنبؤاته العلمية.

ـ٩ـ

وأما الوحيد في الأدب العربي، فيما نعلم والذي كتب اليوتوبيا، حسب الفهم الأوروبي أي كجنس أدبي مستقل، فهو سلامة موسى (١٨٨٧ـ١٩٥٨) ففي كتاب «أحلام الفلاسفة ـ ١٩٢٦» قدم سلامة موسى يوتوبيا مصغرة، باسم «مقدمة لطوبى مصرية» وذلك بعد أن استعرض في كتابه تصورات الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين لليوتوبيا.

في «مقدمة لطوبى مصرية» اقترح سلامة موسى يوتوبياه الخاصة، أو «رؤيته للفردوس المأمول».

ربما نستطيع أن نختار ثلاثة من كتب سلامة موسى، ونعتبرها «إحداثيات» نصل بينها، فتتشكل لدينا «فكر» سلامة موسى. هذه الكتب الثلاثة هي:

١ـ الاشتراكية.

٢ـ نظرية التطور.

٣ـ كتاب الثورات.

ففي كتاب الاشتراكية، نجد إحساس سلامة موسى بالعدالة، أي نجد «حسه الأخلاقي» تجاه العالم، وفي كتاب «نظرية التطور» نجد موقفه العلمي من الوجود البشري، أما في كتاب «الثورات» فنجد صلة الوصل بين العلم والأخلاق، أو سبل تحقيق الفردوس المأمول: الفردوس العلمي ـ الأخلاقي، وربما نجد سبيل وطريق تحقيق اليوتوبيا، التي كتب لنا «مقدمتها».

كما كتب سلامة موسى يوتوبيا قصيرة بعنوان: (من أحلام اليقظة) أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، سنوردها في الملحق.

بقيت ملاحظة أخيرة، وهي أن أصحاب «الاتجاهات التقدمية»، في الثقافة العربية الحديثة، هم أصحاب اليوتوبيات الفنية وكتابها، غالباً.

٣ـ اليوتوبيا في التأليف والترجمة العربيين الحديثين

ـ١ـ

مثلما يلاحظ في الثقافة العربية الحديثة غياب الأعمال اليوتوبية الفنية، فإنه يلاحظ ضعف التأليف والترجمة في هذا الموضوع، بالنسبة إلى التأليف والترجمة في المجالات والحقول الفكرية والفنية الأخرى. وطالما أننا حددنا اليوتوبيا بأنها الحلم بالمستقبل الأفضل، والإيمان بإمكانية تحقيقه على هذه الأرض بالذات، ورسم المشاريع أو تخيلها، فإننا سنحاول تتبع الكتابات والترجمات ـ والترجمة ما تزال تؤثر في ثقافتنا ربما أكثر من التأليف، وهذه أحد مظاهر قصورنا الثقافي والمعرفي ـ أقول سنحاول تتبع هذه الأعمال ـ مؤلفة ومترجمة ـ في الثقافة العربية، وفي حدود ما وصل إليه تتبعنا.

ـ٢ـ

ربما يمكننا اعتبار مقالة صغيرة وردت في المقتطف عام /١٨٨١/ بعنوان «مستقبل المشرق» من أولى الكتابات التي تنبئ عن مفهوم التقدم، والإيمان بإمكانية تخيل مستقبل أفضل، والمؤلف يقيس على أوروبا التي كانت متخلفة أكثر من العرب ذات يوم، لكنها تقدمت فيما

بعد، وبالتالي فلا مانع من أن يتقدم العرب في المستقبل، وسنورد هذه المقالة كاملة في القسم الثاني من هذا البحث، والمقالة هي لمحرر المقتطف يعقوب صروف (١٨٥٢ـ١٩٢٧) على الأرجح.

.٣

ربما يكون كتاب سلامة موسى (١٨٨٧ـ١٩٥٨) «أحلام الفلاسفة ـ ١٩٢٦» أول كتاب في النهضة العربية الحديثة وثقافتها يقدم الأحلام اليوتوبية، أحلام الفلاسفة إلى القراء العرب، ففي هذا العام أصدر سلامة موسى، الرائد في كثير من المجالات، كتابه الريادي الذي يقدم فيه اليوتوبيات الأوربية بدءاً من جمهورية أفلاطون، ثم يتحدث عن يوتوبيا توماس مور، واليوتوبيات الأوروبية الأخرى في العصور الوسطى، ثم يوتوبيا القرن التاسع عشر، ووصولاً إلى اليوتوبيا الصناعية واليوتوبيا الاشتراكية، مروراً بيوتوبيات إدوار بيلامي ووليم موريس وروبرت أوين والسان سمونيين وفوريه... وغيرهم.

ربما تحت تأثير هذه اليوتوبيات كتب سلامة أول يوتوبيا فنية، وربما كانت اليوتوبيا الفنية الوحيدة في اللغة العربية، وهي «مقدمة لطوبى مصرية» وسنقدم نصها كاملاً في القسم الثاني من هذا البحث.

.٤

أما ثاني كتاب يتحدث عن اليوتوبيا ـ بمعنى اليوتوبيات الأوروبية السابقة، فهو، في حدود علمي، كتاب د. زكي نجيب محمود (١٩٠٥ـ١٩٩١) «أرض الأحلام ـ ١٩٣٩» ففي هذا الكتاب يستعرض

المؤلف، ملخصاً وشارحاً، اليوتوبيات الهامة في التاريخ الأوروبي، مضيفاً إليها مدينة الفارابي الفاضلة، إذ يدرس المؤلف يوتوبيات عصر النهضة والعصر الحديث، مشيراً إلى كل من توماس مور وفرانسيس بيكون وصموئيل بتلر ووليم مورس وهـ. ج. ولز، ومن اليوتوبيات القديمة يتحدث عن جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة للفارابي.

لقد كان لهذا الكتاب، بعد كتاب سلامة موسى، فضل الريادة لهذا الحقل الفكري ـ الفني، في الثقافة العربية الحديثة، ومع الأسف فإن تأثير الكتابين كان محدوداً، فيما يبدو، إذ لم يصدر الكتاب الثالث في هذا الموضوع ـ وفي حدود ما نعلم، إلا في عام ١٩٨٢. كان بإمكان كتابي سلامة موسى وزكي نجيب محمود المبكرين أن يؤثرا، في الثقافة العربية الحديثة، لكن تأثيرهما كان محدوداً في إنتاج تفكير وتخييل يوتوبيين عربيين، ربما لأن الظروف التاريخية والفكرية والمستوى الفني ونمط التفكير اليوتوبي المبني على العقائد السائدة، لم تساعد ـ كليهما ـ على المضي في هذا الطريق. وربما لأن الفن اليوتوبي قد مضى أوانه واستنفذ أغراضه مع اكتماله في اليوتوبيا الأوروبية، أفكاراً وتخييلاً وفناً وعلماً وأفقاً للبشر، لكن هل هذا صحيح؟! هل مضى ـ حقاً ـ زمان الحلم بمستقبل أفضل للبشر على هذه الأرض، هل انتهى التاريخ حقاً، كما يتردد منذ أواخر القرن العشرين، وهل أُغلق التاريخ على المخيلة والفكر والعلم الأوروبيين؟! هل نضبت المخيلة والذهنية البشرية حقاً، ذلك أن نهاية اليوتوبيا هي نهاية للمخيلة والذهن، والعكس صحيح، فنهاية التاريخ، هي نهاية التفكير والتخييل.

ما يزال الإنسان يعاني ويشقى، ولهذا سيظل، على الأرجح، يحلم

-٥-

الكتاب العربي الثالث والذي يدور حول الموضوع اليوتوبي هو كتاب «مع الفارابي والمدن الفاضلة - ١٩٨٢» لمؤلفه فاروق سعد، وفيه يتحدث المؤلف عن حياة الفارابي ومؤلفه المعروف «المدينة الفاضلة» بتفصيل وتقص كبيرين، ثم يتحدث عن ماهية المدن الفاضلة وقصص الخيال العلمي وقصص العجائب والعوالم المفقودة، وقصص الآخرة التي يدرجها ضمن اليوتوبيا، وأبحاث أخرى، وقد كان لهذا الكتاب فضل الاستمرار على طريق شقها سلامة موسى وزكي نجيب محمود، وإن كان موضوعه قد ضُيق إلى حد ما.

-٦-

الكتاب الرابع في موضوع اليوتوبيا هو كتابنا «الرواية واليوتوبيا - ١٩٩٥» وفيه تدرس العلاقة ما بين اليوتوبيا والرواية والعقلانية واكتشاف أمريكا وظهور الرأسمالية في أدب النهضة الأوربية، وتاريخها، وصولاً إلى اليوتوبيا المضادة في حضارة القرن العشرين.

-٧-

وفي هذا المجال يمكننا أن نشير أيضاً، إلى مقالة هامة وشديدة التركيز صدرت في مجلة فصول[1] القاهرية بعنوان «الايطوبيا

---

[1] فصول. المجلد السابع. العددان ٣-٤ عام ١٩٨٧.

والإيطوبيات: الكلمة والأصناف والدلالة» لمؤلفها عبد العزيز لبيب. حيث يدرس المؤلف تاريخ اليوتوبيا ومفهوم هذا الجنس الأدبي منطلقاً من الفترة اليونانية وصولاً إلى يوتوبيا توماس مور.

وكذلك هناك مقالة لطيفة للقاص العراقي محمد خضير بعنوان «مدينة الرؤيا» منشورة في كتاب (الحكاية الجديدة ـ ١٩٩٥).

كذلك نشر يوسف الشاروني مقالة عن (يوتوبيا الخيال العلمي في الرواية العربية) في مجلة (عالم الفكر) الكويتية عام ٢٠٠٠.

ـ ٨ ـ

أما في حقل الترجمة، وهو حقل نشط في الثقافة العربية، فإن المرء يدهش عندما يلاحظ قلة ما ترجم عن هذا الموضوع، وتأخر ترجمات الأعمال اليوتوبية الفنية الهامة نفسها، فقد كان أول كتاب هام ترجم إلى اللغة العربية في هذا الموضوع هو كتاب بيكر (المدينة الفاضلة لدى فلاسفة القرن الثامن عشر) وهو كتاب يتحدث عن الفكر السياسي الأوربي في هذا القرن، أما الكتاب الثاني فهو كتاب «كارل مانهايم» المرجعي والكبير الأهمية «الإيديولوجية والطوبائية ١٩٦٨» ترجمة د. علي جواد الطاهر، والكتاب هو مقدمة في علم اجتماع المعرفة، ولهذا ـ ربما ـ اهتم به علماء الاجتماع والمعرفة والفلاسفة أكثر مما اهتم به نقاد الأدب والأدباء، مع أن الكتاب يفتح النوافذ المتداخلة في العلوم والمعارف والفنون الإنسانية، وعبر نافذتين هامتين تنفتحان على كل الفنون والمعارف والأفكار، وهما نافذتا الإيديولوجية واليوتوبيا ونقاط الاتصال ـ الانفصال بينهما.

-٩-

الكتاب الهام الآخر الذي ترجم إلى العربية حول هذا الموضوع هو كتاب «المدينة الفاضلة عبر التاريخ - ١٩٩٧ » لمؤلفته ماريا لويزا برنبري، وترجمه عطيات أبو السعود، وراجعه د. عبد الغفار مكاوي.

تستعرض المؤلفة في هذا الكتاب المؤلفات اليوتوبية في التراث الأوروبي بدءاً من يوتوبيات العصر القديم، ووصولاً إلى اليوتوبيات الحديثة، وهو كتاب مرجعي هام، وقد صدر في سلسلة ذات انتشار واسع هي سلسلة «عالم المعرفة» الكويتية.

-١٠-

كذلك ثمة فصول عن اليوتوبيا في بعض الكتب - مثل كتاب ماكس هوركهايمر «بداية فلسفة التاريخ البرجوازية»[١] إضافة إلى فصل في كتاب (حنة ارandت) (نسيج الانسان الفاسد) بعنوان(افول اليوتوبيا الغربية) وهناك كتب ومقالات أخرى لا مجال لذكرها هنا لأنها لاتدخل في موضوعنا.

من هذا الاستعراض الموجز يتبدى لنا مدى غياب أو ضعف، الاهتمام بالتفكير والفن اليوتوبي، ترجمةً وتأليفاً في الثقافة العربية الحديثة، مما يشير إلى أسباب ونتائج ليست في صالح الثقافة والمجتمع العربيين، بأي حال من الأحوال، ومما يشير أيضاً إلى مدى غياب التفكير والتخيل المستقبلي.

---

١ ترجم الكتاب إلى اللغة العربية محمد علي اليوسفي ١٩٨١ ولخص مفهوم اليوتوبيا عند هوركهايمر خليل أحمد خليل في مجلة « الفكر العربي المعاصر » بيروت العدد ٢٧ كانون الأول ١٩٨٥ كانون الثاني ١٩٨٦.

القسم الثاني

يوتوبيات عربية

١. وصف الجنة

فصل في:

«ذكر شجرة طوبى [١] *لقوله تعالى: {طوبى لهم وحسن مآب}»

٤٠٩. حدثنا أبو بكر الطلحي، ثنا أبو حسن الوادعي، ثنا أحمد بن يونس، ثنا يعقوب القُمِّي، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن شهر بن حوشب قال: «طوبى شجرة في الجنة، كل شجرة منها، أغصانها من وراء سور الجنة».

٤١٠. حدثنا محمد بن إبراهيم بن علي، ثنا محمد بن الحسن بن قتيبة، ثنا أحمد بن زيد الخراز، ثنا ضمرة، ثنا ابن شَوْذَب، عن إبراهيم بن أبي برة، عن مجاهد في قوله: {طوبى لهم}قال: «شجرة في الجنة، حملها أمثال ثدي النساء، فيه حلل أهل الجنة».

٤١١. حدثنا محمد بن علي بن حسين، ثنا إبراهيم بن شريك، ثنا أحمد بن يونس ثنا المُعَافى بن عمران، وكان من خيار الناس، قال:

---

١ «طوبى اسم الجنة في الهندية» ص٨٦ من هذا الكتاب الذي ننقل عنه النص المتقدم. ويقول الدكتور عبد الجليل الطاهر مترجم كتاب «الإيديولوجية والطوبانية» لكارل مانهايم: الطوبى - في اللغة العربية تعني الجنة. وتقابل بهذا المعنى الكلمة اليونانية .Utopiaص١٢ من الترجمة المذكورة م .خ.

* تتألف الكلمة Utpiaمن كلمتين هما: Ouوتعني لا، و Toposوتعني: مكان وبهذا فكلمة اليوتوبيا تعني حرفياً: لا مكان.

حدثني إدريس بن سنان، عن وهب بن منبِّه، عن محمد بن علي قال: ثم لقيتُ محمد بن علي بن الحسين بن فاطمة فحدثني قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ في الجنة شجرة يُقال لها طوبة، لو سُخِّر الجواد الراكب أن يسير في ظلها لسار فيها مائة عام قبل أن يقطع ورقها. وبُسْرُهَا بُرُود خضر وزهرها رياط صُفْر وأفناؤها سندس، واستبرق، وثمرها حلل أحمر، وصَمْغُها زَنْجَبيل وعسل، وبطحاؤها ياقوت أحمر، وزمرد أخضر، وترابها مسك وعنبر وكافور أصفر، وحَشيشُها زَعْفَرَانٌ مُونِعٌ والألَنْجُوجُ تتأجَّجَانِ من غير وقود ينفجر من أصلها أنهار السَّلسَبيل، والمَعِين والرَّحِيق، وظلُّها مجلس من مجالس أهل الجنة يَألَفُونَه، ومُتَحدَّث لجَمْعِهِم، فَبَيْنَاهُمْ يَوماً يتحدثون في ظلها إذْ جَاءَتْهم الملائكةُ يَقُودُونَ نُجُباً بُخْتاً جُبلت من الياقوت لم ينفخ فيها الروح مزمومة بسلاسل من ذهب، كأن وجوهها المصابيح نضارةً، وحسناً، ووبرها خَزٌّ ومَرْعَزِيٌّ أبيض مختلطان، حُسْناً وبهاءً، ذُلَلٌ من غير مهانة، نُجُب من غير رِيَاضَةٍ عليها رِحَال ألواحها من الدُّرِّ، والياقوت مُفَضَّضَةٌ باللؤلؤ والمرجان صَفَائحها من الذهب الأحمر مُلَبَّسَةٌ بالعَبْقَرِيِّ، والأرْجُوان، فَأناخُوا لَهمُ تلك النَّجائب، ثم قالوا لهن: إن ربكم يُقرِئُكم السلام، ويسْتَزيركم لتنظروا إليه، وينظر إليكم، وتحيُّونهُ ويُحييِّكُم، ويكلمكم، وتكلمونه، ويزيدكم من سعتِه، وفضله إنَّه ذو رحمة واسعة، وفضل عظيم، فيتجوَّلُ كل رجل منهم على راحلته، ثم انطلقوا صفّاً واحداً معتدلاً لا يَفُوتُ منه شيء شيئاً، ولا يَفُوتُ أذُنُ النَّاقة أذُنَ صاحبتها، ولا بركةُ ناقته بركة صاحبتهن ولا يمرُّون بشجرةٍ من أشجار الجنة إلاَّ أتحفتهم بثمرتها، وزحلتْ لهم عن طريقهم، كراهية أن ينثلِم

صفُّهم، ويُفَرَّقَ بين الرجل ورفيقه، فلما دفعُوا إلى الجبَّار تعالى سفر لهم عن وجهه الكريم، وتجلَّى لهم في عظمته تحيتهم السلام. قالوا: ربنا أنت السلام، ومنك السلام، ولك حقُّ الجلال والإكرام، فقال لهم ربهم: إني السَّلام، ومني السَّلام، ولي حقُّ الجلال والإكرام، فمرحباً بعبادي الذين حفظوا وصيتي، ورعوا عهدي، وخافُوني بالغيب، وكانوا مني على كل حال مُشفقين مُنتصحِين. قالوا: أما وعزَّتك، وعظمتك، وجلالك، وعُلُوِّ مكانك! ما قدرناك حقَّ قدْرِك، وما أدَّيْنا إليك كل حقِّك، فأذنْ لنا بالسُّجود لك. فقال لهم ربهم تبارك وتعالى: إني قد وضعت عنكم مُؤْنَةَ العبادة، وأرحتُ لكم أبْدانكم، فطالما أنصبتم لي الأبدان، وأعنيتم لي الوجوه، فالآن أفضيتُم إلى روحي، ورحمتي، وكرامتي، فسلُوني ما شئتم، وتمنَّوا عليَّ أُعطكُم أمانيكم، فإني لن أجزيكم اليوم بقدر أعمالكم، ولكن بقدر رحمتي وكرامتي وطولي وجلالي وعُلُوِّ مكاني وعظمة شأني، فما يزالون في الأماني، والعطايا، والمواهب حتى إنَّ المقصِّر منهم في أُمنيَّتِه ليتمنى مثل جميع الدنيا منذ خلقها الله عزَّ وجلَّ إلى يوم أفناها، فقال لهم ربهم تبارك وتعالى: لقد قصَّرتم في أمانيِّكم، ورضيتم بدون ما يَحِقُّ لكم، فقد أوْجبتُ لكم ما سألتم وتمنيتم، وألحقت بكم ذُرِّيَّتكم، وزدتكم ما قصَّرتُ عنه أمانيكم، وانْظُروا إلى مواهب ربكم عز وجل الذي وهب لكم، فإذا بقبابٍ في الرفيع الأعلى، وغُرَفٍ مبنيَّةٍ من الدر، والمرجان، أبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندسٍ، واستبرق، ومنابرها من نور يثُورُ من أبوابها، وعراصُها نورٌ شُعَاعُ الشَّمس عنده مثل الكوكب الدُّري في النهار المضيءِ. وإذا بقصور

شامخة في أعلى علّيين يزهر نورها، فلولا أنه مسخّر لالتمع البصر. فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش من العبقري الأحمر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر، مموّة بالزُّمرد الأخضر، والذهب الأحمر، والفضة البيضاء. قواعدها وأركانها من الجوهر، وشُرَفها قباب من اللؤلؤ، وبروجها غرف من المرجان، فلما أبصروا إلى ما أعطاهم ربهم تبارك وتعالى قُرّبت لهم براذين من الياقوت الأبيض منفوخٌ فيها الرُّوح يجنّبها الولدان المخلدون بيد كلٍّ واحد منهم حكمةُ برذون تلك البراذينُ، ولُجُمُها، وأعنّتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سُرُجُها موضُونةٌ مفروشة بالسندس، والاستبرق فانطلقت بهم تلك البراذين تزفُّ بهم وتنظر بهم رياض الجنة، فلما انتهوا إلى منازلهم، وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور ينتظرونهم ليزوّروهم ويصافحوهم، ويهنئوهم بكرامة ربهم عز وجل، فلما دخلوا قصورهم، وجدوا فيها جميع ما تطوّلَ به عليهم ربهم عز وجل، ممّا سألوا وتمنّوا وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعُ جنانٍ ذوات أفنان، وجنتان مُدْهَامَّتَان فيهما عينان نَضّاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات في الخيام، فلمّا تبوّأوا منازلهم، واستقرَّ قرارهم قال لهم تبارك وتعالى: هل وجدتم ما وعدتكم حقاً؟ قالوا: نعم وربنا. قال: هل رضيتم بثواب ربكم عز وجل؟ قالوا: نعم ربّنا رضينا. قال: رضائي أحلّكم داري، ونظرتم إلى وجهي وصافحتم ملائكتي هنيئاً هنيئاً لكم عطائي غير مجذوذ، ليس فيه تنغيصٌ، ولا تصْدِيدٌ فعند ذلك قالوا: {الحمد لله الذي أذْهبَ عنّا الحزنَ إنَّ ربنا لغفور

شكور، الذي أحَلَّنا دار المُقامةِ من فضله، لا يمسُّنا فيها نصبٌ، ولا يمسُّنا فيها لُغُوب} ».

المصدر: صفة الجنة للإمام الأصفهاني.

شرح وتعليق: سعيد اللحام.

دار الفكر اللبناني - بيروت - ١٩٩٩ - ط. ١

٢ـ مستقبل المشرق

المقتطف

لبعض رجال العلم والسياسة من الأوروبيين ظنون كثيرة في مستقبل المشرق يفضي أكثرها إلى أن الأمم الشرقية قد ألقت مقاليد السيادة إلى الأمم الغربية ولن تستردَّها وتصوَّبت في مهاوي الخسف والذل ولن تتصعَّد منها. ولهم على ذلك دليلان تأخُّر المشرق الحاضر وقِدَم أرومة الشعوب القاطنة فيه الداعي إلى انحطاطها بقياس التمثيل على غيرها من المخلوقات التي انقرضت أو كادت لمَّا تقادم عهدها. ونحن لا نلتفت الآن إلى الثاني من هذين الدليلين لأن الاستقراء فيه ناقص ولم يُعدم أضداداً من الإفرنج أنفسهم ولا يُحَطُّ رأيهم على رأي أنصاره ولكننا نلتفت إلى الأول بعين البصيرة لأنه حقيقة حالنا وله في نفوسنا وقع عظيم. فإننا والحق يشهد كلما تأمَّلنا في أحوال المشرق وشعوبه ولغاته يكاد يقضي علينا الأسى لولا تأسينا ولا سيما إذا قابلنا أنفسنا بأوروبا وأمريكا وقد كادتا تطيران من عالم الوجود ونحن كالحجر الأصم لا نبدي حراكاً. ولكننا إذا قلبنا صفحة واحدة من تاريخهما انقشَّعت غيوم القنوط من أمام أعيننا وظهرت لنا تباشير شمس الرجاء ورأينا أن شرقنا في حالته الحاضرة جنة بالنسبة إلى ما

كانا عليه منذ قرنين أو ثلاثة. ويا حبذا لو سمحت لنا صحف جريدتنا أن نبيّن ذلك بما نريد من التفصيل ولكن قد يغني القليل عن الكثير فنظر الآن نظرة عامّة إلى فصل واحد من تاريخ الأمم الغربية بدخل فيه أحكم حكمائهم وأعقل عقلائهم ونعتمد على شهادة كتبهم والفصل الذي أخذناه هو محاكمتهم للحيوانات من جملة مظاهر الغباوة التي تسلطن على الأمم الغربية في ما يسمّى بالقرون الوسطى وامتدتْ إلى القرن الماضي محاكمة الحشرات التي تجتاح المزروعات والوحوش التي ترتكب الجرائم. فكانوا يقيمون لها وكيلاً يحامي عنها في المحكمة حتى إذا ثبتت الجناية التي اشتكي عليها بها أفتت المحكمة بحرمها ونفيها أو بعقابها من ذلك محاكمة الجرذان التي حامى عنها شسنو في أواخر القرن السادس عشر وفاز بالنصر وهي شهيرة في الشرائع الفرنساوية. وذلك أن الجرذان كثرت في أبرشية أوطون بفرنسا فدعيت للمحاكمة وأقيم شسنو محامياً عنها ولما لم تحضر قال شسنو أن الدعوى على كل جرذان الأبرشية وبما أنها كلها مشتركة في المصلحة وجب أن تدعى كلها للمرافعة فقبل المجلس طلبهُ وأوعز إلى خوارنة القرى أن تدعو كل الجرذان للمحاكمة في يوم معين. ولما جاء اليوم ولم تحضر قال شنسو أنها لما كانت قد دعيت كلها من صغيرة وكبيرة لزم لها زمان طويل للتأهُّب وطلب تأجيل وقت حضورها إلى يوم آخر فأجّلوهُ ولكنها هي لا تود أن تخالف أمر المجلس ولكنها تخاف من قطاط المشتكين عليها أن تفتك بها وهي آتية وراجعة فإن تكفل أصحاب القطاط بأن قطاطهم لا توقع بها ضرراً قبل انتهاء المحاكمة فهي مستعدة للمجيء ولما رأى المجلس أن المدعيين لا يمكنهم أن يتكفلوا بذلك أجّل المرافعة إلى وقت غير محدد.

ومنها المحاكمة الآتية وهي أنه في سنة ١٥١٩ اشتكى رجل اسمهُ سمعان فلس للقاضي وليم هسلنجن في تيرون بالنمسا أن جرذان الحقول أضرَّت بحقوله ضرراً بليغاً فعيَّن رجال المجلس هنس كرنبز محامياً عن المدَّعى عليه (الجرذان) وعين المدَّعي سكوارز منج محامياً عنهُ وشهد شهود كثيرون أن الجرذان أضرَّت بالحقول ضرراً بليغاً فخرج الحكم بهذه الصورة: غب التشكي والمحاماة والتقرير والمعارضة والنظر في كل ما تقتضيه العدالة صدر الحكم بأن الهوام المدعوة جرذان الحقول يتوجب عليها أن ترتحل من قول ستلْف بعد أسبوعين من إعلان هذا الحكم. وأما الحوامل والعاجزات منها لصغرها فيباح لها أن تتأخر أسبوعين آخرين ثم ترتحل. هذا من قبيل محاكمة الحشرات أما محاكمة الوحوش المجرمة فكانت على هذا النمط. يُقام للوحش المشكو عليه وكيل يحامي عنهُ فإذا ثبتت جريمتُه اقتصّوا منهُ إما قتلاً أو حبساً على حسب جرمه وكان أكثر الوحوش تعرُّضاً للشكوى منها الخنازير والثيران والذئاب. من ذلك أنه حكم على خنزير في ١٤ حزيران سنة ١٤٩٤ بالقتل معلقاً لأنه خنق ولداً في سريره وهذه صورة الحكم: إننا بناءً على فظاعة هذا الذنب وتبعاً للعدل صدر حكمنا أن الخنزير المشار إليه يعلَّق ويُخنق... خُتم بخاتمنا إلخ. وكثيراً ما كانوا يلبسون الحيوان لبس إنسان ويقضون عليه وهو على تلك الصورة. ولو شئنا تعداد الأمثلة لذلك لطال بنا المقال فوق الاحتمال. وفي ما ذُكر كفاية لإقناع اللبيب أن البشر وإن بلغوا الغاية القصوى من الجهل والغباوة لا يلزم عنهُ بقاؤُهم على حالهم وإلاَّ لما نفضت أوروبا غبار الجهل عنها أبداً. والتمدُّن متى تمَّ لقوم لا يصعب مدهُ إلى غيرهم في بضع سنين ألا ترى بلاد اليابان وقد كانت غائصة في

أعمق لحجج الجهل منذ سنين قليلة أخذت في هذه الأيام تجاري أوروبا وأمريكا في تمدنهما. فلا تيأسُنَّ أهالي المشرق فإنكم والحمد لله لم تبلغوا خطة أهالي المغرب التي أشرنا إليها ولا يتعذَّر عليكم مجاراتهم الآن إذا وطَّنتم نفوسكم على ذلك. كل من سار على الدرب وصل.

المصدر: مجلة المقتطف ـ تموز ، ١٨٨١

محرر المقتطف: هو يعقوب صروف.

٣ـ سياحة العقل

(من قلم فرنسيس أفندي فتح الله مراش)

بينما كان العقل يسبح في قفار هذا الكون الفسيح وينتقد أثارهُ العجيبة وأحوالهُ الغريبة وإذا جبلٌ عالٍ لاح أمامهُ نور ساطع كان ينبجس من قمته الباذخة وينير كل الضواحي فتوقف العقل مأخوذاً بهذه الظواهر المفاجئة وما لبث قليلاً أن أطلق السير إلى ذلك الجبل وكلما كان يدنو منهُ كان النور يزيد سطوعاً ونتوعاً حتى بلغ السفح وتوقَّف عن المسير.

وإذا صوتٌ سرّيٌّ يقول أصعد لترى الملك العظيم فأطاع للحال وجعل يتسلّق ويصعد حتى تبوأ القمة وأغرورقَ في مسيل الأنوار وكأن عالماً جديداً ظهر لهُ وإذ كان يتأمل هذا المنظر البديع ناداهُ ذلك الصوت قائلاً هو ذا أنت على قمة جبل الحرية فاهرع إلى جهة مطلع النور لترى المشهد الملوكي فأخذ العقل يتقدم حتى بلغ الجهة المقصودة وإذا عرشٌ عظيم يلوح أمامهُ وملكٌ رفيع الشأن جالسٌ عليه والنور ينبعث من كل جوانبه. أما وجه الملك فكان مطبوعاً على البشاشة والدعة وكان الإنس والبشر يقطران من كل أقطاره وكانت ثيابهُ البيضاءُ منسوجةٌ من اللطافة والسذاجة. فلم يكن هناك فضةٌ ولا ذهبٌ ولا لؤلؤٌ ولا ماسٌ ولا ياقوتٌ. فما كان يخال هذا الملك الجليل إلاً رجلاً كبقية الرجال. فوقف العقل

محتاراً عند رؤياهُ وبينما كان يخبط في اختباره وذهوله إذا شخصٌ انتصب أمامهُ وقال لهُ ما بالك يا أيها العقل تحتار وتندهش مما تراهُ أمامك كأنك لم تعلم من ترى وما تعاين فأجابهُ العقل من أنت يا هذا تكلمني وتستقصي خواطري وكيف فاجأتني هكذا. فأجابهُ الشخص أنا رجل الحق فلا أظهر إلاّ بغتةً. فقال لهُ العقل أخبرني ما هذه المظاهر التي أشاهدها. فأجابهُ الحق أن هذا العرش المنتصب هو عرش الإنسانية وهذا الرجل الجالس عليه هو ملك التمدن وهذه الأنوار المنبعثة هي أنوار الحكمة وذلك الصوت الذي سمعتهُ هو صوت الفطنة. فأطرق العقل برهةً ثم قال ولماذا قد انفرد هذا الملك العظيم عن مملكته واتخذ هذا الجبل الحالي مقاماً لهُ. فقال الحق أن هذا الملك لم يتملك قطٌ على مملكةٍ. فانذهل العقل من هذا الجواب وأجاب على الفور كيف لا وكل ممالك البشر تعتدُّ بكونه سلطانها وتنادي باسمه آناء الليل وأطراف النهار وجميع الأرض تترنح بذكره وتحارب لمجده فقال الحق كلاً إن في ذلك لمكراً وخداعاً والذي يحكم الآن على البشر هو ملك التوحش والجميع يتوهمون أنهم محكومون من ملك التمدن وما ذاك إلاّ لأن ملك التوحش أمكنهُ أن يتزيّا بزي ملك التمدن ويحكم جميع الأرض وذلك بمساعدة أعوانه المراياة* والنفاق والسيادة والتعصب. فأجاب العقل كيف هذا لعمري أنا لا أصدّق دعواك فامسك الحق بيده وقال لهُ هلمَّ فأريك دعواي. فلحق العقل بالحق وسارا معاً حتى بلغا إلى قمة عالية وأشرفا على جميع النواحي وهناك أطلّ العقل فرأى أرضاً واسعةً وظلاماً مخوفاً يحتكم ويدلهمُّ عليها وسحاباً نارياً يظللها وأصواتاً هائلة تندفع من

* أي المراءاة. م. ح.

جوف ذلك الظلام.

فلبث العقل مذعوراً من هذا المشهد الذريع وقال ما هذا المنظر الجهنمي. فأجاب الحق إن هذه الأرض التي تراها هي العالم المأهول وهذا الظلام هو الانقياد والجهل وذلك السحاب الناري هو زفرات الذين يهيمون في عشق الحقيقة ويطلبون وصالها ولا يمكنّهم من ذلك رقباء الأباطيل.

وبعد قليل من الوقوف على تلك القمة التي تدعى قمة الصواب قال الحق للعقل هلمَّ بنا نهبط إلى الأسفل ونغوص في هذا العباب الكثيف فأُريك مفردات الأشياء فهبطا حتى تواريا في الظلام ولكن لم يعدوا يشعران بادلهمامه الذي كان يظهر لهما بالنسبة إلى تلك الأنوار التي كانا يعومان فيها وهما على جبل الحرية.

وفي أثناء سيرهما صادفا تلاً مرتفعاً فقال الحق للعقل أتدري ما هذا التلُّ فأجاب لا فقال لهُ هذا تل الظلم هيَّا بنا نصعد عليه فترى ما دونهُ فصعدا ولما بلغا الغاية أشرف العقل فرأى في الأسفل ناساً يمزقون ثياب أناسٍ وقوماً يهدمون بيوت قومٍ وبعضاً يهتكون عهود بعض وأمةً تسلب حقوق أمةٍ وقبيلةً تنهب أمتعة قبيلةٍ. فعجب العقل من هذا المشهد وقال ما هذه الأفعال الذميمة والأطوار القبيحة. فأجاب الحق إنك لم تعاين شيئاً بعد هلمَّ واتبعني فنزلا وسارا أيضاً حتى وصلا إلى تلٍّ آخر فقال الحق هذا تلُّ العبودية فلنصعد عليه. ولما صعدا وبلغا المطل رأى العقل فلاةً واسعةً فيها أفواج أفواج من البشر ينقادون من الأفراد كانقياد التيوس والثيران. وكانت هذه الأفراد القليلة تجلدهم بالسياط وتسوقهم إلى حيث لا يعلمون. فكان ذلك الجلد الأليم ينتهي بالبعض

إلى محررة الأفكار والقلوب. وبأول بالبعض إلى مدّ أعناقهم تحت نير المتسلّط لخزانة حقول المطامع. وتفضي بآخرين إلى المشانق والمناقع والحبوس وسلب الأموال والأرزاق بدون شريعةٍ ولا كتاب. حتى أن واحداً من هذه الأفراد المتسلطة كان منتصباً على عرشٍ يبلغ رأسهُ إلى السبع الشداد. وحولهُ قومٌ يهددون بالقتل والحرق والسجن والهتك كل من لا يسجد لهذا المنتصب على العرش ويؤْمن بسلطانهِ وألوهيته ومقدرته المطلقة. فلما نظر العقل هذا المرسح الفظيع أغمض عينيه وقال الموت ولا النظر إلى هذه الأهوال القبيحة فأجابهُ الحق حنانيك فلم تنظر شيئاً بعد هلمَّ بنا فأريك الأعظم.

وهكذا هبطا وما زالا يسيران إلى أن التقيا بتلٍّ آخر يدعى تل الزور وكان شاهقاً وطلق المطلّ فتسلّقاه حتى الرأس ووقفا حيث المستشرف. فأطلق العقل طائر نظره وإذا هو يحوم على تنوفةٍ رحبةٍ وفي وسطها قصرٌ ينطح روقهُ هامة السهى وجمٌّ غفيرٌ من بني الإنسان يتموّجون حول هذا القصر صفوفاً صفوفاً وجميعهم لهم أعينٌ ولا يبصرون وآذانٌ ولا يسمعون وألسنٌ ولا يتكلمون.

وكان عن بُعدٍ أفرادٌ من البشر منفردين بعضهم عن بعض على شفاق وهم يكتبون على القراطيس ودموعهم ذارفةٌ كالسحاب وزفرانهم صاعدةٌ كالدخان وكأنهم في مصابٍ عظيم وعذابٍ أليم. أما أولئك القوم المتموجون حول القصر فكانوا جميعاً يسحبون مطارف السراء ووجوههم تفيض حبوراً وسروراً وهم يتصايحون باسم الناموس ويقولون ليعيش الناموس وليدم مجداً ومشرَّفاً ولا زالت شوكتهُ طائلةً ودولته مؤيدة ولتعش أنصارهُ ومدامة الذين يجهتهدون بتنفيذ أوامره وتوكيد مشيئته

وفي كل فترةٍ كان يأتي رجلٌ من بعيدٍ ويدخل القصر من باب ويخرج من بابٍ آخر مرتدياً بثياب تفوق قدر ثياب العموم بما فيها من العظمة والجبروت. وكلما شاهد القوم هكذا رجلاً داخلاً وخارجاً ضربوا لهُ بآلات الطرب والطبول والصنوج وصاحوا به ونادوا. فلما عاين العقل هذا المشهد تعجب واستغرب ولم يدرك شيئاً فقال لهُ الحق ما بالك يا صاحبي تحار وتعجب سرْ بنا لأطلعك على حقائق هذا المشهد.

فكاتفه وهوى به وجداً إلى أن ولجا القصر ودخلا في مغارةٍ هناك تدعى مغارة الفحشاء فنظر العقل هناك رجلاً لا يوجد أجمل منهُ ولا أبهج ولكنهُ مقيدٌ بأغلالٍ من حديد وعلى فمه غلقٌ متين وعلى عينيه عصابةٌ لكي لا يبصر وثيابُه مخزقةٌ وكل بدنه مشوّهٌ ومثخنٌ بالجراح وهو يتنهد ويتصعد فوقف العقل مندهشاً لدى هذا المنظر وقال للحق اخبرني بالله عليك ما هذا الخطب فلا عاد لي صبرٌ عن فهم هذه المناظر. فأجابهُ الحق إعلم يا صديقي أن هذا الرجل المسكين البادي لديك هو الناموس الذي كنت تسمع صياح القوم به ومناداتهم وقد طرحُ ملك التوحش في هذه المغارة المظلمة مقيداً ومغلولاً وكل رجلٍ يتوظف في مقدمة هذا الملك لا يباح لهُ إجراءً وظيفته ما لم يدخل هذا القصر ويطعن هذا الرجل المظلوم بحراب التعدي والرشوة والتصحب والتعصب والاغتيال ونحو ذلك. وكل الرجال الذين كنت تراهم يدخلون القصر من باب ويخرجون من باب آخر هم المتوظفون.

فاستشاط العقل غضباً حرّق أسنانه وقال يا لليلية أما يوجد لهذا الملك وهؤلاء الرجال ناموسٌ عادل وما هذا القصر وما هذه الأبواب ومن هم أولئك الجماعة المتموجون حولهُ وأولئك الأفراد المنفردون الباكون.

فأجابهُ العقل تعال فأريك وأخذهُ ودخل به إلى قاعةٍ واسعة من قاعات القصر. فرأى العقل هناك صنماً مصنوعاً من الذهب الإبريز منصباً على عرشٍ في وسط القاعة وفي يده اليمنى تُحمل كرة الأرض وفي اليسرى كتاب مصفح بالذهب المرصع بالجواهر وفي رأسه إكليلٌ قد صُورت عليه أشكال كل الأسلحة المميتة. فتقدم العقل وفتح هذا الكتاب وإذا مرسوم على صفحاته أشكال كل الدنانير المطروقة عتيقةً وجديدة. فعجب وقال ما هذا الصنم الذهبي وهذا الكتاب الذي لا يوجد فيه من الكتابة سوى صوّر دنانير. فأجابهُ لاحق إعلم ايدك الله أن هذا الكتاب هو ناموس ذلك الملك وأولئك الرجال الذين سألتني عن ناموسهم. وهذا الصنم هو خادم هذا الكتاب ومدير الأرض التي تراها في يدهِ. وذلك بالأسلحة التي ترى أشكالها على إكليله.

أما هذا القصر فهو قصر الخداع. ولهُ بابان الأول وهو المدخل يقال له باب الموالسة ويقال للثاني وهو المخرج باب الشراسة. أما تلك الصفوف التي كنت تراها تضجُّ حول هذا القصر فهي عموم الناس وأما تلك الأفراد التي تشاهدها تكتب على القراطيس باكيةً منتحبةً فهي الأخصاء. أي الذين يعلمون ما هذا القصر وما يجري ضمنه. فسقط العقل للحال على الأرض وأخذهُ الدوار والإغماء لما سمع شرح الحق وكاد أن يموت ويفنى فأنهضهُ رفيقه ونبههُ وقال لهُ لا ينبغي أن يكون العقل جباناً ذا خوفٍ وارتعاد. فتشدد لأنك سوف ترى أعظم من ذلك. فقال العقل قتلتني يا صاحبي بهذه الخطوب التي تطلعني عليها. فما هذه الحالة المبينة وما هذا العالم الغرور. أما يوجد في الرؤوس نخوةٌ وفي القلوب دمٌ وفي الأرواح حماسةٌ وكيف لا يدرك العموم هذه الأهوال التي

تفترسهم وتمزقهم. فأجاب الحق مهلاً مهلاً فلم يحن الوقت بعد فهيا بنا نذهب إلى تل اخر. فخرجا من القصر وجعلا يعدوان حتى قابلهما تلٌ يسمى تل الحرب فصعدا وانتصبا على قمته. فأشرف العقل على فسحةٍ فسيحة يقطعها نهرٌ سريع الجريان. وعلى جانبي هذا النهر ربواتٌ من الرجال يقتتلون ويتفانون. وكانت أصوات معامعهم ولغط نيرانهم تصرع السماء، وترتجُّ منها الجبال. ودخان أسلحتهم يغشّي وجه الجوّ ويبرقع محيًا الشمس وتحت أقدامهم وحوافر خيلهم ألوفٌ ألوفٌ من القتلى والجرحى والنهر مستحيلٌ إلى دمٍ. والأرض مصبوغةٌ بالنجيع. وفي خلل ذلك كانت تعج ولاول الأرامل وصراخات اليتامى وعويل الأطفال وندب الآباء والأمهات وكان الحداد لبس جميع البشر. والجوع والعري نصيبهم، والخراب والدثار حظهم، لأن نيران الوغى كانت تبتلع كل مساكنهم وتفني مزارعهم وحقولهم.

فلما أبصر العقل ذلك المرسح المهول كاد أن يطير شعاعاً أو يبخع بنفسه وقال الويل الويل لبني البشر كيف يلقون أنفسهم بأيديهم إلى التهلكة. فأجابه الحق إن ذلك بأمر رجلين أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب. فقال العقل وكيف كل هذه الربوات من الناس تخضع لأمر رجلين وتقتتل بقساوةٍ كهذه لأجلهما فعسى أن يكونا مفطورين من طبيعةٍ إلهية قادرة على كل شيء بقوة طبعها الذاتي. فأجاب الحق كلاً بل هما من نفس طبيعة هؤلاء البشر الذين يتفانون أمامك ولهما كل ما للطبيعة البشرية. ولكن تغلّب عليهم ملك التوحش وألزمهم بقوة توحشه أن يخضعوا لأمر هذين الرجلين ومن مثلهما. فأمسك العقل بيد الحق وقال لهُ ارني ناشدتك الله من هذا الملك الذي تكرر اسمهُ لأكون على

بصبرةٍ من أحواله. فقال لهُ الحق لبيك فاتبعني فتبعهُ حتى انتهى به إلى مدينةٍ يصعد تاريخها إلى عهد نمرود ذات أسوارٍ منيعة وأبراج حصينة ولكنها مبنيةٌ على أساس الجهل. أما أسواق هذه المدينة فضنيكةٌ ومعوجة حتى يكاد السالكون فيها يضيعون ولا يهتدون. ولا يباع في حوانيت هذه الأسواق إلاّ الغشوش والخرافات. ولا ينادى إلاّ على الزور والبهتان ولا يمكن لكل مارٍّ النفوذ منها ما لم يشتر شيئاً من هذه البضائع ولو بالكلام والمسايرة ويُضرب ويُسجن. حتى أن دم الشهداء لا يفتر صياحهُ صاعداً من أرضها.

ثم لم يزل الحق آخذاً بيد العقل حتى بلغ به إلى سرادقٍ عالٍ ينتهي بخبر كان. فصعدا على سلمٍ هناك ذي درجات عريضة من المرمر الأبيض محفوفة على الجانبين بسياجٍ من الفضة والذهب. ثمَّ دخلا قاعة يقال لها قاعة الدواهي وكان على جدرانها وسقفها صورٌ ترتعد منها الفرائص. ومن هذه القاعة ولجا في قاعةٍ أخرى يقال لها قاعة الاختطاف. وكانت كل جدرانها وسقفها منقوشةً بصور بزاةٍ وصقور وكل الجوارح. وفي منسر كل من هذه الطيور أو بين مخالبه نفسٌ بريةٌ أو عقلٌ رفيع أو قلب طاهر. ثم استطرقا من قاعة الاختطاف إلى قاعةٍ أخرى يقال لها قاعة الاستشهاد. وكانت كل جدرانها وسقفها منقوشةً بتصاوير مراسح القتل. فكان يُرى صُور أناسٍ يحرقون بالنار وأناسٍ يموتون بالجدل وأناسٍ تضرب أعناقهم بالسيوف وأناسٍ يعلقون بالحبال وأمهاتٍ تذبح على صدورهنَّ أطفالهنَّ. وعلى كلٍّ من هذه الصور مكتوبٌ هكذا يقول رب الجنود. وكان في صدر هذه القاعة كوَّةٌ يطلُّ منها على محلٍّ آخر. فقال الحق للعقل تعال وأشرف من هذه الكوّة التي فتحها القرن الخامس عشر لترى

من تودُّ رؤيتهُ. فتقدم العقل وأطلَّ فنظر قاعةً عظيمة السعة وجميعها مُصفَّحٌ بالذهب ومصورٌ بكل صور القاعات الأُخر وبجميع أشكال البضائع التي تباع في المدينة. وفي صدرها يقوم صرحٌ عظيم المقدار يرقى إليه باثنتي عشر درجة وبعضهم يرى تسع عشرة درجة والبعض يرون نحو أربعين درجةً. وفي هذا الصرح يُرى رجل كأنهُ التمدن فقال العقل للحق هو ذا أرى نفس ذلك الملك الذي رايتهُ على الجبل فكيف قلت لي أنهُ لم يحكم قط على الأرض وها أنا أراهُ منتصباً على عرشهِ في هذه المدينة التي هي عاصمة الدنيا. فأجابه الحق أن هذا الذي تراهُ هو ملك التوحش. وهو متزيٍّ بزي ملك التمدن كما قلت ويوهم بذلك كل القبائل. وها أنت بعد قليل ترى حقيقتهُ لأنهُ لا يستطيع اللبوث على هذا الزي ولا ساعةً واحدة. فيخلع ثياب التصنع كلما أبرز إمرةً ثم يرجع إليها. وبينما كان الحق يناجي العقل بهذا الكلام إذا قومٌ دخلوا من الباب الشرعي للقاعة المنظورة من الكوة وتقدموا نحو الصرح وسجدوا لدى المنتصب عليه وأعطوهُ دُرجاً فنشرهُ وقراهُ. وبعد قراءته قال لا أجاوبكم حتى أخلع ثيابي كما تعلمون فطفق البعض منهم يشلحهُ وبعد تجريده من ثياب التصنع تأملهُ العقل فرآهُ شخصاً ذريع المنظر. فكان وجهه الذي وقع عنهُ نقاب النور يشبه وجه الضبع وعنقهُ يشبه عنق الثور وعيناهُ تشبه عيني النمر ويافوخهُ يشبه البرميق وشعرهُ كشعر الخنزير وكان لهُ قرون الوعل وأنياب الأسد وأظفار النمر وجلد التمساح. وذنب التنين. وصار صوتهُ عندما يتكلم مثل قواصف الرعد. وعاد كأنه يهمُّ أن يفترس الدنيا ويبتلع الأكوان. فعند ما تأمل العقل هذا الشخص المرعب قال للحق وا أسفاه كيف يحكم العالم هذا الوحش الضاري وكيف

يتسلط على البشر ويفتك بهم وهم لا يبالون ولا يشعرون. فأجابهُ الحق لأن كل الناس إلا القليل منهم لا يعلمون ذلك ويتوهمون أنهم محكومون من ملك التمدن الذي لم ينزل من جبلهِ بعد. وليس لتوهمهم هذا سببٌ سوى رؤيتهم ظلهُ كل فترةٍ من السنين. أما أصوات سوى الذين يعملون فلا يمكن أن يخترق رنينها أصوات الذين لا يعملون. فسأل العقل: إذاً يستحيل نزول ملك التمدن وحكمهُ على الأرض. فأجابه الحق: قد قرب ذلك، لأن ملك التوحش قد شاخ وهرم وصار على حافة القبر فكن مطمئناً.

فرانسيس مراش

المصدر: سياحة العقل، الجنان، المجلد الأول، السنة الأولى، الجزء الثاني ـ ١٥ نيسان ١٨٧١ ـ ص٢٦٩ـ ٢٧٣

٤ ـ العصر الجديد ـ ١٨٧٩

أديب اسحق ١٨٥٦ـ١٨٨٤

ولقد نشر أديب اسحق تصوره للمدينة العربية الفاضلة وعلى صفحات جريدة (مصر) تحت اسم (العصر الجديد) وفيها يتخيل الكاتب حكيماً أقلقه أمر الاستبداد و الفساد والعسف في المجتمع العربي فرقد حزيناً بائساً ثم إذا به يستيقظ فجأة على صوت جلبة عظيمة فرأى:

«ألوفاً من الناس ينادون بأصوات مرتفعة: وا عجباه أنَّا أمة عظيمة ولا قوة لنا وأرضنا مخصبة ولا نجد القوت... نشتغل ولا نجني ثمرة الاجتهاد... ونؤدي الضرائب الباهظة فلا تعد كافية... ونحن في سلم خارجي وحرب داخلية فمن هو ذاك العدو الخفي الذي يسلب أموالنا ويفسد أحوالنا، ثم رقي أحدهم مرتفعاً في ذلك المحفل وقام فيهم خطيباً فقال: ارفعوا في هذا المقام لواء وادعوا إليه الذين يخدمون الهيئة الاجتماعية بالأشغال النافعة يظهر لكم العدو الخفي... فانتشر ذلك اللواء ودار من حوله أهل الاشتغال فانقسم الجمع قسمين... وكان السواد الأعظم في جانب اللواء إلا أن عليهم علائم التعب والعناء والفقر والشقاء ـ وعلى أولئك ـ الذين من غير جانب اللواء إمارات العز والسعة والهناء... ولما تقابل الفريقان قالت الكثرة ـ الفقيرة للفئة القليلة ـ الغنية

ـ ما بالكم انفصلتم عنا وأنتم منا فقالوا نحن لم نوجد لنشتغل ولكن لنعتني بأموركم... فنادت العامة: رويدكم انتعب وتنعمون ونغرس وتجنون... تجمعون منا الثروة وتسمون ذلك عناية فما لكم لا تتألفون أمة منفردة لنرى كيف يكون قوامكم... فقالت النبلاء: ألا تذكرون أيادي آبائنا العظام وما لهم في بلادكم من الآثار الجسام أو لا تعترفون بالسطوة الشرعية إذ أن ما يرومه الملك تأمر به الشريعة. فأجابوا: يا أيها المتحيزون الموالون أن الملوك لا تروم إلا سلامة الجمهور والشريعة لا تأمر إلا بالمساواة فاستشاط المتحيزون من الجند غيظاً وقالوا: لقد فتنت العامة فلا بد من إرجاعها إلى الطاعة عنوة فيا أيها الجند قاتلوهم حتى يطيعوا... فصاحت الجند: أنَّا أيضاً من الأمة فأين العدو وحينئذ نادت الفئة القليلة: لقد خاب الأمل فقالت العامة: بل لقد تم وحصل النجاح وانتبهنا من رقدة الغفلة فلا تدوم الفتنة ولكننا نلتمس الحرية وما الحرية إلا العدل... ثم قام خطيب الجماعة فقال: يا قوم لا يحسن الاكتفاء بالنجاة من الظالمين بل يجب علينا منع وجود غيرهم فإنا بنو الإنسان قد أرتنا التجارب أن كلاً منا يميل إلى السلطة ويجنح إلى الأثرة. فلا بد لنا من وضع الحدود لأفعالنا وحقوقنا وتلك مهمة تستغرق وقت الإنسان بجملته فلا نستطيع النهوض بها من اشتغالنا بغيرها فانتخبوا جماعة منكم ينقطعون إليها ويقتصدون من الشغل عليها وفوضوا إليهم أن يصنعوا لنا حكومة ويسنوا قانوناً واجعلوهم وكلاء آرائنا ونواب مصالحنا.

فاستصوبت الأمة ذلك وانتقت من نبهائها جماعة غير قليلة ثم قالت لهم: لقد كنا إلى الآن في جمعية تألفت على حكم الاتفاق فلم

تعش بها الحدود ولم تعرف الحقوق حتى ساءت حالنا وعظم اختلالنا وقد نحونا من تلك الحال رغبة في الانتظام وانتخبناكم لتضعوا لنا أحكاماً فتدبروا في الأمر لتعلموا كيف ينبغي أن تكون مواضيعه وشروطه وما هي الغاية من الاجتماع الإنساني وما هي حقوق كل أعضائه وواجباته وبعبارة ثانية ضعوا لنا قانوناً عادلاً وانشئوا فينا حكومة جديدة».

«فوقف أولئك الوكلاء صفوفاً على شكل نصف دائرة ورأوا أن لا بد لهم من رئيس يرعى أحكامهم ويضبط زمامهم فاختاروا لأنفسهم زعيماً فكان هو الرئيس أو الوالي أو الأمير أو الملك ولما تم انتظامهم على هذه الصورة قالت الأمة: يا أيها الرؤساء لا تنسوا أن القوة التي خولناكم إنما هي قوتنا وأنه ينبغي لكم أن تكونوا أول التابعين لما تضعون من القوانين وللحال أخذ أولئك الرؤساء في القيام بما انتدبتهم الأمة إليه وبعد البحث والتدقيق ظهر لهم مبدأ الحق الكلي فقام زعيمهم في الجماعة وقال: إني أتلو عليكم أصل كل عدل وكل حق طبيعي: أن العناية قد منحت جميع الناس أعضاء ومشاعر متساوية وجعلت لهم حاجات متماثلة فصرحت بذلك أنها تمنح لهم حقوقاً ومشاعر متوازية يتصرفون بها فيما يملكون وأن الناس على اختلاف أحوالهم سواء في حكم الطبيعة... وكذلك جعلت لكل الناس وسائل كافية لتحصيل حاجاتهم الطبيعية فصار من المقرر البديهي أنها أوجدتهم مستقلين بعضهم عن بعض وأبدعتهم أحراراً لا يتعين على أحد مهم الخضوع للآخر بل كل منهم يملك وجوده الذاتي ملكاً مطلقاً... فتبين من ذلك أن المساواة والحرية من لوازم الوجود الإنساني وقواميس الحكمة الإلهية...

ولما كان كل من الناس مالكاً لوجوده الشخصي لزم من ذلك أن تكون الحرية من شروط الملازمة التي لا ينقضها ميثاق ولا يحلها عهد وكذلك لما كان الإنسان مساوياً لغيره من بني نوعه وجب أن يكون ما يأخذه مساوياً لما يعطيه وبذلك يتبين أن الحرية مشتملة على العدل الموجب للمساواة».

«وبناء عليه فالمساواة والحرية هما الدعامتان الطبيعيتان لكل اجتماع إنساني. فهما المبدأ الضروري الأصلي لكل قانون... ولكل حكومة نظامية».

«ثم قال الخطيب الرئيس: إن هذا التغير يوجب الرجوع إلى الحالة الطبيعية فهل ترضون بذلك؟

فتقدم أفواج الأمة أفواجاً وطرحوا بين أيدي الرؤساء آثار امتيازاتهم وثرواتهم المغتصبة قائلين: بينوا لنا قوانين المساواة والحرية فإنا لا نروم أن نملك شيئاً إلا بحكم العدل ولا نطالب إلا أن يكون قانوننا وشعارنا... المساواة والعدل والحرية».

وإلى هنا انتهت أحلام ـ الحكيم ـ وعلق عليها أديب اسحق قائلاً:

«ذلك هو بيان العصر الجديد ـ مستمد من فيض الحكمة الغربية... بسطناه تفاؤلاً بالخير... وليكون نموذجاً لنا فيما نعالجه الآن من إصلاح القوانين وتنظيم الأحوال وإقامة الأمور».

أديب اسحق

نقلاً عن كتاب: عصر التنوير العربي ـ د. فاروق أبو زيد ـ المؤسسة العربية

للدراسات ـ بيروت ,١٩٧٨

وأعيد نشر النصف في: أديب اسحق: الكتابات السياسية والاجتماعية جمعها وقدم لها: ناجي علوش ـ دار الطليعة ـ بيروت ,١٩٧٨

وكان النص قد نشر للمرة الأولى في جريدة مصر ١٩ /تموز/ يوليو/ ١٨٧٩، ولم نصل إلى النص كاملاً. م.خ.

٥. مقدمة لطوبى مصرية. ١٩٢٤

سلامة موسى . ١٨٨٧-١٩٥٨

«الزمان نوع من المكان. فبدلاً من أن أقول: منذ ألف سنة حدثت تلك الحادثة. يمكنني أن أقول: تلك الحادثة حدثت في المكان الفلاني في الفضاء، في دورة الأرض الفلانية عند حركة الشمس الفلانية... لو كان تحقيق حركتي الأرض والشمس يمكن تعيينهما في مكان في الفضاء. فأفهم عندئذ من هذا القول ما أفهمه من قولي: منذ ألف سنة حدثت تلك الحادثة. بل يكون فهمي هنا أدق وإدراكي للحادثة أوضح».

كنت أتلفظ بهذه الألفاظ بصوت أسمعه، كما هي عادتي عندما أريد أن أوضح لنفسي شيئاً غامضاً، لأن اللفظة عندي هي أساس المعنى. وليس المعنى أساس اللفظ.

وأنا في هذا، أحاول أن أميز بين الزمان والمكان، وإذا بالنعاس يغلبني ويكاد يتطور إلى نوم. ثم إذا بوعي العقل الظاهر ينقلب إلى أحلام العقل الباطن. ثم فترة من التردد، بين الصحو والغفو، ثم النوم ولكنه لم يكن نوماً إلا في ظاهر الجسم، أما في باطن الأعصاب والدماغ فقد كانت الأفكار تتأرجح، والخواطر تترادف وتتجمع، ثم تتشتت وتتبدد. وبعد برهة، فقدت الشعور بزمانها (أو بمكانها) أحسست كأني

أنحدر وئيداً إلى حيث ينقشع الظلام وينبلج الضوء. ثم استنشقت أنفاس الصباح، بل كرعت منها وعببت فيها، كأني لم أذق طعم الهواء النقي منذ سنين. وهببت من فراشي وأنا أقول: «تأخرت. تأخرت. ولكني قعدت ثانية في الفراش عندما نظرت إلى ما حولي. فإن الغرفة لم تكن غرفتي، ولا الفراش فراشي. ونظر إلى الحائط فوجدت معلقاً عليه نتيجة وبها هذه الأرقام: ٧ فبراير ٣١٠٥ .

وتأملت ما حولي فوجدت المرتبة والوسادة واللحاف كلها مصنوعة من الكاوتشوك المنفوخ. والغرفة نظيفة ناصعة. فقلت في نفسي لا بد أني كنت مريضاً وجاءوا بي إلى هذا المستشفى اليهودي، إذ لا شك في أن هذه السنة يهودية تبتدئ من موسى، وموسى جاء قبل المسيح بنحو ١٣٠٠ سنة. هؤلاء اليهود لا ينسون تاريخهم. ولكني لا أعرف لماذا أحضروني هنا، فإني لا أتذكر أني مرضت».

ثم نظرت إلى جسمي لأرى به علامة جرح أو كسر فلم أجد. فكددت ذاكرتي أبحث عن حادثة في الماضي فلم أهتد. فقمت من الفراش، وسرت نحو النافذة، ولكني لم أخط خطوتين حتى صكت أذني صرخة، فالتفت إلى الوراء فرأيت فتاة تعدو وهي تقول: «النائم صحا. النائم صحا».

ولم تمضِ دقائق حتى سمعت المستشفى كله يردد هذه العبارة: «النائم صحا». وبعد نحو ربع ساعة سمعت الشارع كله يتجاوبها. فتحاملت إلى النافذة، وأنا أكاد أقع من الضعف، وأطللت، فرأيت جموعاً من الناس في هيئة غريبة يتصايحون: «النائم صحا، ها هو ذا ينظر. إنه شاحب. قد لا يعيش. يجب أن يرد إلى الفراش. أين

المرضات والأطباء؟». وكان الآباء يحملون الأطفال على أكتافهم لكي يروني من الزحام. وحلقت في الجو قريباً من النافذة نحو خمسين طيارة صغيرة، ووقفت، ينظر إليَّ ركابها.

وبينما أنا مشغول بهذا المنظر، وإذا بيد توضع على كتفي، فالتفت ووجدت رجلاً نحيفاً، طويل الوجه ضخم الرأس، عليه ملامح البنات، يقول لي بصوت عذب: «هل لك أن تعود إلى الفراش؟ أنت ما زلت ضعيفاً».

وكان في ألفاظه حلاوة وإغراء، فعدت إلى الفراش واضطجعت. فقعد على كرسي بجانب سريري، وأخذ يجس نبضي ويفحص لساني ويتحسس أجزاء في جسمي. ثم قال: «يبدو لي أنك قد عوفيت. ولكن يحسن عقد مجلس من الأطباء للإقرار على شأنك».

فقلت: «ماذا كانت علتي، ومتى يسمح لي بالعودة إلى البيت؟».

فضحك ضحكة طويلة دون القهقهة، وقال: «يظهر أنك تجهل كل شيء. لقد مضى عليك هنا ١١٨٠ سنة. إن حادثتك غريبة. فقد أُصبت سنة ١٩٢٥ بفالج في الدماغ فذهب عنك وعيك، وبقيت سائر أعضاء جسمك تعمل كما لو كنت صاحياً. كنا نغذيك وأنت نائم، حتى ذهب عنك الفالج فصحوت الآن. لقد نمت ١١٨٠ سنة».

ولكن هذا الكلام لم يجز إلى عقلي. ورأيت من العبث أن أجادل هذا الرجل، فتجاهلت كل ما قاله وقلت بثبات وعزم: «أريد أن أرى عائلتي».

فعاد إلى ضحكته التي تراءت لي هذه المرة أنها سخيفة جداً، وتبدت على وجهه عندئذ ملامح الوغد الذي يتعلل لحبسي وإيهامي

أوهاماً كاذبة. فقلت وصوتي يتهدج بما يهيج في نفسي من الغيظ: «إذا لم أذهب إلى عائلتي فأنا أقفز من هذه النافذة وأنتحر. وأنت المسؤول».

فعلت وجهه حمرة الاضطراب، وقام يتلطف ويسري عني، ويقول: «ستخرج قريباً بعد استفتاء المجلس. لا تخش شيئاً. كلنا يحب لك الخير والراحة. لا تخش شيئاً. انظر قد حضر بعض الأعضاء».

فنظرت إلى الباب، فإذا بخمسة أو ستة أشخاص يسيرون نحو غرفتي. وتأملتهم عندما دخلوا فوجدت فيهم اثنتين من النساء وأخذوا جميعهم يفحصونني، وأقروا على أن صحتي جيدة. وأذنوا لي في الخروج بعد تناول الطعام.

فقدم لي طبق من فواكه مختلفة لا أعرف أسماءها، ولم يقدم لي شيء مطبوخ. فقلت: «هذا لا يقيتني. أرجوكم أن تحضروا لي لحماً وخبزاً فإني أشعر بالجوع الشديد.»

فلاطفني أحدهم وأخبرني بأن في هذه الفواكه ما يزيد عن حاجة جسمي من الغذاء، وفيها طعوم مختلفة حلوة وملحة. ثم رتبها لي، فأكلت أولى الأثمار فكانت تشبه في طعمها اللحم. ثم أكلت شيئاً من الجوز، وكان يسيل دهناً، ثم تناولت ثمرة جميلة اللون ذكية الرائحة قريبة في الطعم من الكمثرى، وأحسست بالشبع والري من هذا الطعام اللذيذ ثم انفض المجلس، وبقي الشخص الأول. فقال لي: «والآن هل تريد أن تخرج إلى المدينة؟».

فقلت: «أجل. هذا ما أريد». فناولني سراويل ومعطفاً لبستها وخرجت معه.

وما أشد ما كانت دهشتي عندما رأيتني في مدينة غريبة يتزاحم

أهلها لرؤيتي. وكانوا كلهم يشبهون رفيقي، طوال الأجسام ضخام الرؤوس نحيفي الأبدان، لا يختلف الرجل عن المرأة إلا في أن له شاربين دقيقين. أما اللحية فكنت أرى شعرات في مكانها، أو لا أرى شيئاً. وكانت أفواههم صغيرة، وبعد أن اختلطت بهم عرفت أن ليس لهم أسناناً في الفك الأسفل. أما أسنان الفك الأعلى فلم يبقى منها إلا أعجازها. وأخبرني هذا الشخص الذي كلف بمرافقتي عن أشياء كثيرة خاصة بي وبالمدينة التي نسير فيها. فحكى لي كيف أني عشت عيشة نباتية، وأنا مسطح على فراشي دون أن أعي. وكيف أن هذه المعيشة كانت سبباً في أن أعمر هذا العمر الطويل، لأني صرت بمثابة الشجرة لا أجهد إلا أقل الجهد. وكيف ربت أموالي حتى صرت الآن من أغنى الناس. ففي سنة ١٩٢٥ كنت أملك خمسين فداناً، ولم يكن ينفق عليٌ بعد الفالج إلا ربع عشرة فدادين، وما تبقى من الريع يتوافر باسمي. حتى أن أولادي لم يرثوا شيئاً مني لا هم ولا أحفادهم. وعلى الرغم من مقاضاتهم لي لم تستطع محكمة أن تقر على موتي، فتراكمت أموالي بهذه الطريقة. ثم قص عليّ تاريخ مصر في الألف السنة الماضية. وكيف حدثت فيها ثورات اشتراكية، وكيف أخفقت التجارب الأولى للحكومة، ثم انتهت بالنظام الحاضر. وأخذني في اليوم الأول لخروجي من المستشفى وأراني بعض مناظر مصر أيام كنت أعيش فيها قبل أن أمرض. فعرض عليّ جملة أشرطة سينماتوغرافية ورأيت بلادي كما كنت أعرفها. ثمر عرض علي أشرطة أخرى للمائة السنة التالية، ثم الثالثة، وهلم جرا، إلى أن أبلغني مناظر «خيمي» أي مصر في عصره.

وكان قد استقر في ذهني الآن أن ما رواه لي عن مرضي صحيح.

وقد كنت في حياتي السابقة أعرف شيئاً عن نظرية التطور، بل أدعو إلى الإيمان بها، فلم يكن من الصعب إذن أن أستضيء بضوئها في الظروف الحاضرة. ولكن علمي بهذه النظرية أسقط كرامتي بعض الشيء. فإني كنت أنظر إلى نفسي كأني متأخر عن هؤلاء الناس نحو ١٢٠٠ سنة. وكأني بينهم بمثابة إنسان متحجر حي. والحق أنهم كانوا ينظرون إلي، على الرغم من تأدبهم، هذه النظرة المهينة. فقد كنت أرى عيونهم تثبت في وجهي، وتتفحص هيئة دماغي. وكان صبيانهم يتجرءون أحياناً على لمس لحيتي، ويتعجبون من خشونتها، كما كانوا يصرحون أحياناً أخرى بتعجبهم من صغر رأسي.

وعدت عند الأصيل إلى غرفتي فوجدت ممرضتي التي قدمت لي طعاماً من الفاكهة أيضاً. وأخذت في الحديث معها، وكان قد غادرنا رفيقي. وشعرت ونحن في وحدتنا بالغرفة بشعور عائلي بيني وبين هذه الفتاة، فقد عرفت منها أنها عنيت بتمريضي نحو ثلاثين سنة. وكان هذا وحده كافياً لأن أدل عليها بحق الصحبة القديمة والعشرة الطويلة. ثم قصت علي حالي أيام مرضي. ولم تكن القصة طويلة، إذ كانت تتلخص في أني كنت في سبات حال بعض الحيوانات وقت تشتيها، حين تتحجر وتنام ثلاثة أو أربعة شهور لا تأكل فيها ويقتصر نشاط جسمها على التنفس مع دورة دموية بطيئة جداً. ولما رأى الأطباء أني سأموت لا محالة إذا لم أتغذ صاروا يحقنون عروقي بمواد مغذية نحو مرة كل شهر تقريباً، فكانت الحقنة تمسك رمقي. واتبع الأطباء هذه الطريقة معي وجعلوني أعجوبة الدهر، حتى قيل لي أنه قد ألفت كتب عن حياتي هذه وتعليلها بجملة علل. وآخر ما ظنه بعضهم أني أختلف عن سائر الناس

في تركيب بعض الغدد الصماء. وقد ارتأى بعضهم تشريحي بعد موتي، ولكني أخلفت ظنهم إذ صحوت.

وكانت الفتاة تخاطبني بصوت جميل فيه بحة مستملحة. وكانت طويلة، ضخمة الرأس، لا يكاد يكون لها صدر يشبه صدور النساء البارزة. وكانت تلبس لبس بني عصرها. فالساقان والذراعان والرأس عارية، والحذاء بلا جورب. وليس على جسمها من الملابس سوى قطعة من نسيج واسع متخلخل أشبه شيء بالكاوتش، يغطي ما بين العنق والساقين. وكان الرجال والنساء سواء في ذلك. أما شعر الرأس فكان يرخى حتى يغطي بعض الوجه والقفا.

وألفت هذه الفتاة التي عرفت أن اسمها «راديوم» وشعرت منها كأنها قد ألفتني. وكان في نظرتها لي شيء يحببها إلي إذ لم أكن أرى في عينيها ذلك الاحتقار الذي كنت أراه في سائر أهل «خيمي» عندما كانوا يتفرسون في هيئة رأسي وكونها دون رؤوسهم في الحجم. وكانت تشرح لي كل شيء خاص بأحوالهم ومعاشهم ونظامهم. وكنت كل يوم يزيد ارتباطي بها وتعويلي عليها، حتى كنت أقف في جانبها كالطفل في جانب أمه.

وشرحت لي غذاءهم، فوجدت أنهم لا يعرفون الطبخ ولا يذبحون الحيوان. لأنهم قد استنبتوا من الأثمار فواكه مختلفة منها ما ينفع غذاء ومنها ما يستعمل دواء. وبعض غذائهم كالنشا والسكر كانوا يستخرجونه من الجماد، أي بالتركيب الكيماوي. وكانت الزراعية في أيدي ناس خبراء لكل منهم معمل يستولد فيه البذور الجديدة ويقابس فيها الأغذية المختلفة مع طعومها الحلوة والمزبزة والملحة. ولم تكن

عنايتهم بالأثمار من حيث الغذاء فقط، فقد كانوا يلتفتون أيضاً إلى الأرج واللون، بحيث لا يقعد الإنسان إلى طعام حتى يرى ما يغذو العين والخياشيم كما يرى من الطعم ما يلذ اللسان.

وكانت مساكنهم في غاية العجب. وبعضها مؤلف من طبقات يحتوي المسكن على نحو مائتي نفس تقريباً من أولئك الناس الذين يميلون إلى الألفة والاجتماع. بينما كانت هناك منازل منفردة بين الحقول يعيش فيها المغرمون بالعزلة أو المنكبون على درس موضوع خاص يستغرق كل وقتهم ويصرفون إليه جميع قواهم. وكانت حياتهم تسهل على الإنسان الإنفراد، لأنه كان يجد في وحدته كل ملاذ الاجتماع. إذ كان يجد في غرفته جهازاً للتلفون الأثيري، فيسمع من الخطب والمحاضرات والأخبار ما يشاء ليلاً أو نهاراً. وكان إذا أراد أن يخاطب صديقه، مثلت له صورته وسمع صوته وهو قاعد في غرفته لا يريم. ولم يكن بالمدن ذلك الغبار الذي كنا نراه، لأن الشوارع كانت جميعها مغطاة بالخشب أو الكاوتشوك. حتى الطرق الزراعية كانت كذلك تقوم على جوانبها المصابيح الكهربائية، فلم تكن البيوت تحتاج إلى كنس وتنظيف لا ينقطعان. ثم كان أثاث المنازل يساعد على النظافة لأنه صار كله تقريباً من الكاوتشوك. وكانت الغرف تدفأ وتضاء، كما كان بها أيضاً مراوح تدار باللاسلكي. وكان لكل فرد تقريباً أتومبيل خاص، أو طيارة صغيرة، وكلاهما يدار أيضاً باللاسلكي.

ويمكن أن أقول أن حياتهم كانت على وجه العموم انفرادية من الوجهة الحسية، ولكنهم كانوا في انفرادهم أكثر اجتماعاً منا من الوجهة المعنوية. فإني لم أعرف بينهم إنساناً لم يسمع غناء كل يوم أو لم

يشاهد درامة تمثل في مكان قد يبعد عنه بألف ميل، أو لم يخاطب أصدقاءه النائين عنه في أقطار أخرى مرة كل أسبوع على الأقل ويرى وجوههم ويضاحكهم ويجادلهم. فلم يكن ثم ما يدعو إلى أن يعيش هؤلاء الناس معاً، ثم كان لكل منهم مركبة هوائية أو أرضية تنقله إلى حيث يشاء بأسرع من الريح.

ولكني مع إعجابي بهم لا أنكر أني امتعضت كثيراً عندما علمت أنهم لا يعرفون الحياة العائلية كما كنا نفهمها.

ومما زاد امتعاضي أن وجدت «راديوم» في غاية الجهل وسوء العاطفة نحو هذه الحياة. فقد كانت عواطفي توسوس إلي وساوس لذيذة عن حياة زوجية مع «راديوم» فأتمثلها معشوقتي وزوجتي، تسكن إلي وأسكن إليها، في مسكن يكون عشنا، نأوي إليه معاً، ويكون لنا من ثمرة الحب المتبادل صبيان روقة نتمتع برؤيتهم أطفالاً ونشعر في تربيتهم بلذة الأبوة.

ولم تكن «راديوم» والحق يقال تشذ عن بني جنسها في سوء العاطفة الغرامية. فإنهم كانوا جميعاً جامدين باردين ينظرون بعقولهم أكثر مما كانوا يحسون بعواطفهم. ولا أذكر أني رأيت أحداً منهم يغضب إلى الاحتداد أو يفرح إلى الطرب، فأقصى غضبهم امتعاض، وأقصى فرحهم ابتسام أو ضحك لطيف. ولم يكن الزواج لديهم قائماً على اعتبارات العشق بل على اعتبارات المعيشة والغاية والنسل. فإذا سمع أحدهم عن فتاة تبحث أبحاثه وتدرس ما يدرسه تخابرا، وينتهي تخابرهما إلى إلفة بحيث يعيشان معاً في مسكن واحد. ولكنهما مع ذلك لا يجوز لهما النسل إلا بعد شهادة من الحكومة بأنهما جديران بالنسل.

وكان النسل أخطر ما تتعنى له حكومة «خيمي». والحق أنني عندما أتأمل في أحوالهم أجد أنها كلها تدور حول العناية بالنسل. فقد استقر في هؤلاء الناس أن الإنسان كان في الزمن البعيد يشبه القرد، وأنه بالعناية والانتخاب يمكن أن يرقى إلى أن يكون حيواناً راقياً جداً من حيث العواطف والعقل. ومما ساعدهم وشجعهم على هذا النظر أن الأشرطة السينما توفراغية التي حفظت لهم تاريخ ألف ومائتي عام قد وقفتهم على أحوال آبائهم، ودرجة رقيهم المنحطة، وكيف تدرجوا في الرقي إلى أن وصلوا إلى حالتهم. فلم يكن فيهم من يستطيع التنطع بمجد الآباء، لأن هذا المجد كان يرى على لوحة السينما توغراف فترى عندئذ الوجوه الدميمة والغبار المتطاير والشوارع القذرة والرؤوس الصغيرة. وأذكر أني تصببت عرقاً من الخجل عندما رأيت شريطاً خاصاً بأحد الموالد كانت إحدى الشركات قد أخذت صوره سنة ١٩٢٤ من القاهرة، وتعجبت، كيف كنا نعيش في ذلك الوسط القذر.

وكان عندما يولد غلام جديد تحضر للمنزل لجنة من العلماء، فتفحص جسمه، فإن ألفته يليق للحياة وإلا قتلته في المكان. ولم يكن الأبوان يغضبان من ذلك، وكنت أسمع منهم أن أكبر ما يقتل لأجله الأطفال هو «الردة» أي أنهم يرتدون إلى أصلهم فيخرجون برؤوس صغيرة.

وقد تحادثت مع «راديوم» كثيراً عن هذا الموضوع، فوجدتها لا تستفظع قتل الأطفال. وأجابتني بلهجة باردة جداً بأنهم لا يحسون بالموت أكثر من أي حيوان آخر، وأن مصلحة الأمة والأجيال القادمة تقتضي ذلك. أما طريقتهم في التربية فكانت في نظري أفضل ما

عندهم. فقد كان الطفل يبقى مع أبويه نحو ست سنوات. ثم يؤخذ بعدها إلى المدارس حيث يعلم تعليماً عملياً لذيذاً. فكانت الجغرافية والتاريخ، وأيضاً التاريخ الطبيعي، تعلم بالسينما توغراف. فكان الصبي الذي لم يتجاوز العاشرة يعرف هذه الأشياء من المعارف الصحيحة أكثر مما يعرفه طالب قد بلغ الثلاثين في مدارسنا القديمة. وكانت المدرسة عبارة عن ورشة ومكتبة يتنقل بينهما الطالب. وكان يمتحن امتحانين، أحدهما امتحان حضارة خاص بنظام الحكومة وتركيب الآلات المختلفة والزراعة والكيمياء ونحو ذلك، مما تقوم به الحضارة. والآخر امتحان ثقافة حيث يدرس تاريخ الأمم والإنسان القديم والفلسفات المختلفة التي نبتت من أذهان الناس من العصور البعيدة والأديان والآداب ونحو ذلك. وكان الطالب لا يترك المدرسة عادة قبل الأربعين. ولم تكن هذه المدة طويلة إذا اعتبرت أن أهل خيمي كانوا يعمرون إلى نحو مائة وخمسين سنة. وكانت السياحات البعيدة إلى ثلوج القطب الجنوبي، أو إلى بوادي الصحراء، أو إلى الجبال الشامخة، من ضروب التربية التي يرباها الشاب. فكان الشاب لا يخرج من المدرسة إلا وقد رأى العالم كله تقريباً.

أما نظام الأعمال والتكسب فكان يشبه ما كنا نسمع عنه من الداعين للاشتراكية في زماننا. فقد كانت خيمي مقسمة إلى ضياع بها دساكر، يتبع كل دسكرة نحو ألف فدان، وبها مصنع. وكانت الزراعة كما نفهمها الآن قليلة، لأنه لم يكن يحرث من هذه الألف سوى نحو خمسين أو ستين فداناً لزراعة النباتات الغريبة السنوية أما سائر الأرض فكانت مغطاة بالأشجار المعمرة يؤخذ منها الطعام واللباس والوقود. ولم يكن الري من النيل كما كان في عهدنا، لأن هذا النهر كان قد جف

تقريباً لأن أهل خيمي صاروا يزمون السحاب بازمة علمهم، يرتفعون فوقه بالطيارات ويطلقون عليه من المواد الكيميائية ما يجعله يتكاثف ويقع مطراً في أي جهة أرادوا وفي أي وقت شاءوا. أما مصانع الدسكرة فكانت تصنع كل شيء تقريباً بحيث أن كل دسكرة كانت مستقلة في معاشها عن الأخرى، إلا في أشياء قليلة تبادلها وغيرها. وكان أهل النقابة أشبه شيء بشركة تعاون. ولم يكن يحتاج أحدهم إلى العمل لمعاشه أكثر من ساعة في اليوم، وسائر نهاره وليله يقضيه في المتع الذهنية المختلفة وفي متابعة أبحاثه العلمية، إذ قلما كان يخلو فرد من أبحاث علمية يملأ بها فراغه سواء في ذلك الرجال أو النساء.

وكانت حكومة «خيمي» مؤلفة من خمس هيئات: الهيئة التشريعية والهيئة القضائية والهيئة الصحافية والهيئة الدينية ثم أخيراً الهيئة التنفيذية.

فأما الهيئة التشريعية فلم تكن منتدبة من أفراد ينتخبونها كما كنا نعهد في زماننا. بل كانت تنتجها النقابات المختلفة، فلنقابة الأطباء مثلاً ١٠ أعضاء. ولنقابة البيولوجيين، أي علماء الحياة ١٠ آخرون. ولنقابة علماء الزراعة ١٠، ولنقابة التجاريين ١٠، وهلم جرا... حتى يتألف من ذلك مجلس به نحو ٥٠٠ عضو هو السلطة العليا للتشريع.

وأما الهيئة القضائية فكانت أقل الهيئات ظهوراً في الأمة، لقلة عدد المتقاضين. وكان القضاة ينتخبون عادة من طبقة رجال العمران والبيولوجية، للفصل في من يجب قتله من الناس أو منعه من التناسل ولم يكن ثم عقاب آخر.

أما الهيئة الصحافية فكانت مؤلفة في الحقيقة من عدة هيئات.

فإحداها مثلاً تشتغل بإصدار صحيفة يومية، إما لاسلكية وإما مطبوعة عن الكيميا ء. وأخرى تصدر صحيفة أخرى عن الأدب. وأخرى عن الطب. وهلم جرا.

وكانت الجامعات من الهيئات الخاصة بإصدار الصحف، ولم يكن نظام الجامعات عندهم يختلف عما كان عندنا.

أما الهيئة الدينية فكانت مؤلفة من نقابة عامة من الفلاسفة. ولم يكن يقبل فيها أحد دون السبعين. وكان رأيها هو الأعلى في تقرير ما يؤثر في ذوق الأمة ومزاجها وقصدها، فكانت تعين طريقة تدريس التاريخ وتقرير بناء التماثيل لبعض مشاهير التاريخ أو هدمها. وتقيم التماثيل الخاصة بالجمال أو بالكفايات الإنسانية الأخرى في الميادين... كذلك الحال في الموسيقى والتصوير والرقص، تأمر وتنهي فيها كلها. لأن أهل «خيمي» يعتقدون أن ديانة الإنسان الأحرى بأن تتكون من هذه الأشياء من أن تتكون من العقائد المحفوظة عن ظهر قلب كما كنا نفعل في أيامنا. ولأهل «خيمي» معابد يتعبدون فيها على انفراد، وعلى عكس ما كنا نفعل. والمعبد عبارة عن بناء مستطيل كبير، على كل جدران من جدرانه الأربعة صور تمثل بزوغ الحي الأول وتطوره إلى الإنسان. ثم ما تخيله هؤلاء الفلاسفة وتنبؤا به عن مستقبل الإنسان في صور أخرى تمثله ضخم الرأس كبير العينين شريف الطلعة دقيق الأطراف والأنامل. وفي جدران آخر صور أخرى تمثل ارتقاء الصناعة من عهد الإنسان الحجري إلى زمن أهل «خيمي». وفي جدران أخرى صورة عجيبة لمركز الأرض في هذا الكون ونسبته إليه. وفوق الأرض إنسان يتأمل مركزه في هذا الفضاء الواسع. وفي الجدار الرابع صور الفلاسفة

والأنبياء العظام، وعلى شفتي كل منهم كلمة بارعة أثرت عنه وصار لها أثر في التاريخ. والخيمي إنما يذهب إلى المعبد ليتبين قصده في الحياة، إذا أحس بسأم أو ضلال، فيقعد هناك منفرداً يحاول أن يتصل بالكون وأن يعرف مركزه ومهمته فيه. فيرتاح قلبه ويهدأ ضميره. وإذا استمر به السأم قصد إلى أحد رجال الهيئة الدينية فيدرسه ويعنى به، ويفتح له أبواباً ينشط بها نفسه.

أما الهيئة التنفيذية فكانت مؤلفة من موظفي الحكومة المحليين والعموميين، وعليهم إنفاذ أوامر سائر الهيئات.

وتتلخص حياة الفرد في أنه يبقى مع أبويه نحو ست سنوات، ثم يذهب إلى الجامعة ولا يبرحها حتى الأربعين تقريباً. وهو في تلك المدة يرى أبويه ويعايشهما، ثم يخرج، فيشتغل في إحدى الصناعات اليدوية وينتمي إلى نقابتها. وعندئذ يصير فرداً ذا رأي في مصير الأمة، لأنه ينتخب عن سبيلها النواب في الهيئة التشريعية والقضائية وأحياناً الصحافيين. ونقابته عبارة عن شركة تعاون أيضاً.

فإذا دارت السنة عمل حساب الشركة وما باعته من حاصلات الدسكرة الزراعية الصناعية وما اشترته، ثم توزع الأرباح على الأفراد كل بنسبة عمله. والجزاء يستوى تقريباً بين جميع الأعضاء، لأن المال انحطت قيمته عند أهل «خيمي». ولكن هناك أفراد لهم نزعات خاصة، يهوون مثلاً امتلاك بيت صغير يزينونه بما شاؤوا من التحف. فهؤلاء يشتغلون أكثر من غيرهم لكي يتوافر لديهم من المال ما يقتنون به ما يشتهون من هذه التحف. ونقابة الدسكرة لا تمانع في ذلك بل تشجع عليه، لأن مآل هذه الممتلكات إليها بعد وفاة أصحابها إذ أن مبدأ الإرث

كان قد ألغي منذ زمان بعيد. ومعظم ما ينفق الخيمي ماله عليه هو الطعام والأتومبيل والطيارة (ولكلّ منهما عداد وهما يسيران باللاسلكي). أما المسكن فيعطى لكل فرد بالمجان، وكذلك الماء والنور والحرارة. وللنقابة مخازن يباع فيها الطعام واللباس بأخس الأثمان.

وأهل «خيمي» لا يبالون بكثرة النسل، بل بجودته. فقد كانت مصر في سنة ١٩٢٥ نحو ١٥ مليوناً، أما في سنة ٣١٠٥ فإنه نزلوا إلى نحو ١٠ ملايين فقط. ولكن ليس فيهم واحد يجهل الفلسفة أو مقداراً كبيراً من العلوم الأخرى. وقلما يموت أحد منهم دون أن يكون قد ساح إلى القطب وعاد منه، وذلك لأنهم وجدوا أن العبرة بالأشخاص كيف هم وليس كم هم.

كان ابن عربي الأندلسي يقول: «لا ينبغي للعبد (يعني الإنسان) أن يستعمل همته في الحضور في مناماته، بحيث يكون حاكماً على خياله، يصرفه بعقله نوماً كما كان يحكم عليه يقظة...».

وبعبارة أخرى... إن ما نشتهيه في اليقظة نراه في النوم، فلا تهزأ، بعد ذلك، بالأحلام.

سلامة موسى

المصدر: أحلام الفلاسفة.

سلامة موسى ـ صدرت الطبعة الأولى للكتاب عام ١٩٢٦ ـ وفي هذا الكتاب يستعرض سلامة موسى التفكير والأحلام اليوتوبية عبر التاريخ، منذ جمهورية أفلاطون وحتى العصر الحديث.

٦ـ من أحلام اليقظة

سلامة موسى

...... ثم رأيت الريف المصري وقد تبدل عما كنا نعرفه ولبس ثوباً زاهياً من النضرة في الحقول والنظافة في القرى فكانت القرية بعيدة كل البعد عما كنا نألفه من تلك المنازلة المبنية بالطين والطوب المجفف في الشمس تلك التي كنا نراها في أيامنا كامدة اللون كثيرة الغبار والتراب بل كانت القرى الجديدة أشبه شيء بالمدن الصغيرة فكانت البيوت مشيدة بالحجر كل بيت يتألف من طابقين والأنابيب تحمل المياه إليها وهناك أنابيب أخرى تحمل الغاز للاضاءة والطبخ. وكانت الشوارع مفروشة بالأسفلت ووراء كل بيت حديقة صغيرة للزهر وشجيرات الزينة.

وتأملت الفلاحين أنفسهم فألفيتهم يلبسون ملابسنا نحن الأفندية. ولم يكن أحد منهم في أيامنا يعرف الجورب البمباغ أو القميص الذي يغلى في الماء حتى كأنه يسلق فيخرج أبيض ناصعاً فكنت أرى الفلاحين في هيئة الأفندية المتأنقين فأتساءل: من أين جاءتهم هذه الثروة وكيف يعلمون في الحقول وهم بهذه الملابس الفاخرة؟

وشرعت أدرس أحوالهم فاتضح لي بعد قليل أنهم تركوا الطرق الزراعية التي كنا نتبعها فقد كان كل فلاح في أيامنا مهما تراوح عقاره

من بضعة قراريط إلى بضعة أفدنة يعمل لنفسه فيشتري لنفسه آلات للري وأخرى للحرث ويشتري الماشية لخدمة أرضه وكان فقيراً مريضاً ينزل إلى خصره في الماء الآسن فتتعلق به ديدان البلهارسيا وتصيب جسمه افات كثيرة ولكن هؤلاء الفلاحين رأوا أن التعاون خير من الانفراد. فجعلوا القرية أشبه شيء بالشركة المساهمة والفوا هذه الشركة لري الأرض وزرعها وجلبوا لها المهندسين والزارعين الذين كانوا ينظرون إلى القرية والأرض التابعة لها كأنها مزروعة يملكها رجل واحد فاشتروا لها الآلات القوية لرفع المياه وحرث الأرض. فقد كان في القرية نحو ألف ساقية وتابوت وطنبور للري يعمل فيها نحو ألف رجل فمحى كل ذلك وصار للقرية كلها آلة واحدة قوية تبلغ قوتها ألف حصان يديرها رجل مهندس إذا جاء ميعاد الري روى جميع الأرض المحتاجة إلى المياه. وصار مثل ذلك في الزراعة. ولما كان الزارعون المشرفون على الزراعة خبراء متعلمين فإنهم وجهوا أكبر نشاطهم وهمهم إلى زراعة الخضراوات والفاكهة فكانت غلة الفدان لا تقل عن ٧٠ أو ٨٠ جنيهاً وكانت مصر تصدر الفاكهة والبقول إلى جميع أرجاء العالم. ولم يكن الفلاح يزرع أرضه بنفسه وإنما كانت شركة التعاون تقوم بالري والزرع والحصاد وتعطيه في آخر السنة قيمة حصته بحسب ما يملك في زمام القرية. فكان لصاحب الفدان سهم بينما كان لصاحب العشرة الأفدنة أسهم وهلم جراً.

وفي الوقت نفسه لما وجد الفلاحون أنفسهم بلا عمل وأن الحديد والنار بأشراف المهندسين والخبراء يقوم مقام عضلاتهم في الماضي عمدوا إلى الصناعة فأسسوا مصانع للغزل والنسيج والجبن والاحذية والاثاث

والورق. ورأيت القطن يجنى من الحقل فيوضع في طرف من المصنع فيحلج ثم يغزل ثم ينسج ويخرج قماشاً جميلاً من الطرف الآخر وكان للصناعة شركة تعاون أيضاً تقسم الربح آخر العام بالمساهمة بين الذين اشتركوا في خدمتها والعمل في مصانعها وأثرى الفلاحون من ذلك أثراء فاحشاً فزالت أمراضهم وكادت تمحى جرائمهم وصاروا يتأنقون في ملابسهم ومساكنهم ويشتركون أحياناً في بناء مدرسة أو مسرح حتى لقد رأيت منهم أجواقاً تمثل هامليت وروميو وجوليت وصارت لهم أندية يمضون فيها وقت الفراغ. وكان بعض القرى يميل إلى تأسيس المكاتب وبعضها ينفق النفقات الباهظة في إنشاء المدارس وبعضها يتباهى بتأليف الجوقات الموسيقية أو التمثيلية.

وكما توافر لديهم المال كذلك توافر لديهم الوقت فلم يكونوا يضطرون إلى استخدام أبنائهم في الحقول بل كانوا يرسلونهم إلى المدارس فلا يخرجون منها إلا حوالي العشرين فيستخدمون بعد ذلك بأجور عالية في شركة التعاون التي تدير الزراعة أو تلك الشركة الأخرى التي تدير الصناعة وفشت الحضارة والنظافة بين الفلاحين فصارت القرية تجذب سكان المدن وكان هذا حلماً من أحلام اليقظة.

سلامة موسى

المصدر: سلامة موسى - من كتاب: في الحياة والأدب - أوائل الثلاثينات.

٧ـ جمهورية فرحات

يوسف إدريس (١٩٢٧ـ١٩٩١)

ما كدت أدلف إلى القسم ومعي الحرس حتى أحسست بانقباض مفاجئ، لم تكن تلك أول مرة أدخله، ولكنها كانت المرة الأولى التي أرى القسم فيها في الليل، ولهذا شعرت حين تخطيت الباب أني أدلف إلى خندق سفلي لا يمت إلى الحاضر ولا حتى إلى الماضي القريب.. جدران يكسوها حتى منتصفها سواد على هيئة طلاء وكآبة تكسو نصفها الثاني.. وبقع بيضاء مبعثرة هنا وهناك لا تخفف السواد بقدر ما تظهر بشاعته وأرض لزجة لا تدري أن كانت من الإسفلت أم من الطين، ورائحة..

رائحة لا تستطيع أن تحدد كنهها وإنما لابد أن تحس معها بغثيان وضوء باهت يأتي من مصابيح بالغة القدم عشش عليها الذباب وباض.. مصابيح معظم ضوئها محكوم عليه بالسجن المؤبد داخلها، والقليل الذي يتسلل منها هارباً لا يبدد الظلام بقدر ما يحتمى به ويتستر، وأن وقع على الأشياء والناس فإنما ليظهر كل ما بها من حزن وقبح وبشاعة..

وأحسست حين احتواني هذا كله، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه،

والناس من حولي على سيماهم جدٌّ خطير يمشون كالمنومين وصناديق الفاكهة وعربات اليد وكراسي المقاهي التي صادرها بوليس البلدية وهي مكومة في ركن وأصحابها متناثرون حول الجدران والأركان متهالكين على الأرض ورؤوسهم مائلة على جحورهم، والعساكر الذين يبدون في أرديتهم السوداء كعفاريت منتصف الليل..

أحسست حين احتواني هذا كله إنني لا بد أنا الآخر قد ارتكبت جريمة ونسيت، وتمنيت أن أهرب من المكان بأسرع ما أستطيع. ولم أكن أكن أستطيع مغادرة المكان فقد كان علي أن أحجز في القسم ليلة لأرسل إلى النيابة في صباح الغد.. واحتاروا أين يضعونني، فالحجز كان ممتلئاً والحجرة الأخرى التي يودع السياسيون فيها عادة تعج بالمراقبات وصاحبات الحرفة، ولم يجدوا لي في النهاية خيراً من حجرة الضابط النوبتجي، وهناك تركت ومعي حارس.

كانت الحجرة على سعتها تضيق بمن فيها، وكان أبرز الموجودين جميعاً الضابط النوبتجي. وحين رأيته جالساً إلى مكتبه كالحكمدار

، وعلى يمينه فوهات أكثر من خمسين بندقية مغمدة في فضاء الحجرة، وخلفه اللوحة الخشبية المثبتة في الجدار والمثقلة بألوان وأشكال من السلاسل والقيود والدروع والبلط والخوذات، وعلى يساره الخزانة الحديدية القديمة، حين رأيته هكذا، تخيلت ألا حدود لرهبته وقوته، وأنه يستطيع ببساطة أن يقضم ذراعي أو أن يضع إصبعه في عيني، مع أني كنت متأكداً ألا شأن لي به، ولا شأن له بي..

ووجدتني أترك كل ما في نفسي، وكل ما يشغلني، وانضم إلى جيش العيون المنصبة عليه من الناس المزدحمين أمامه والذين لا يفصله

عنهم إلا سور خشبي منخفض..

وبدا لي أول الأمر وكأنه ليس بكائن حي وإنما جسده قد صنع من طلاء الجدران الأسود، ورأسه خوذة من الخوذات المعلقة وراءه وعيناه فتحات بنادق، ولسانه لابد كرباج..

ولكني حين هدأت قليلاً، واعتدت على المكان، وتأملت كيف وضع (الكاب) فوق رأسه في وقار مخيف، وزرر معطفه الضباطي - على غير العادة - إلى آخر زرار فيه، وشد جلد وجهه في تزمت صارم، فاختفى كل ما فيه من تجاعيد وأصبح أملس كجلد الطبلة المشدود، وأضفى على نظرات عينيه بريقاً تحس معه أنه لا ينظر بهما إلى الناس بقدر ما ينقر ويلسع، وحمل صوته مالا يطيق وهو يشخط ويهدر بكلمات غير مفهومة كأصوات الرصاص..

حين تأملت كل هذا بدا لي حينئذ كأحد الجنرالات الطليان الأسرى الذين كنا نراهم أثناء الحرب. وحدث أن جاء شاويش أو بيتشاويش لا أذكر ووقف أمامه ونادى عليه:

- يا فرحات..

عجيب كيف يناديه بلا تكليف هكذا، ولكن عجبي زال قال مرة أخرى:

- يا فرحات.. يا سي فرحات.

ولم يرد الضابط النوبتجي إلا بعد أن قال له الرجل.. يا حضرة الصول..

وكنت قد اقتربت حتى استندت مع غيري من المستندين على السور الخشبي، وسمعت لهجته التي فيها آثار باهتة من ريف الصعيد، ونم

صوته العالي عن الفضاء الواسع الذي ترعرع فيه وعن مستلزمات الوظيفة من شخط ونطر وقد عملت عملها طوال تلك السنين، فأتلفت صوته وأضافت إليه حشرجة كالتي تلحق براديو القهوة البلدي من كثرة رفع صوته، وذهب الجنرال من خاطري تماماً، ووضحت أمام عيني ملامحه التي كان يلفها ضباب الرهبة والسلطة، ورأيتها صعيدية خالصة بأنفه الكبير كأنف رمسيس، وجبهته الحادة العالية كجبهة منقرع، وشيخوخته التي تنم عن تاريخ طويل في خدمة البوليس إذ إنه لا بد قضى أجيالاً حتى يصل إلى رتبة الصول وقد دخل الخدمة (نفراً) ككل الأنفار، ورأيت جسده العجوز على حقيقته، مستقيماً في أجزاء، منبعجاً في بعضها الآخر، وقد فرضت عليه البدلة العسكرية والحذاء الثقيل و (القايش)، فرضت على جسده شكلها فرضاً، كما يفرض قالب المكوى على الطربوش شكله وأبعاده. وكان من الواضح أنه يحب هذا المركز حين تسند إليه مهمة الضابط النوبتجي ويحب أن يعامله الناس كضابط بحق وحقيق وهو الذي ـ بلا شك ـ قد قضى ثلاثة أرباع عمره يحلم بهذا، وينتظر اليوم الذي يحمل فيه على كتفه (النجمة).. وكان بادياً أن كتفه لن يحمل شيئاً من هذا القبيل، فهو وإن كان يقوم أحياناً بدور الضابط النوبتجي إلا أن الإحالة إلى المعاش كانت تبدو وشيكة، ونجمة الفجر أقرب إليه من نجمة الملازم الثاني.. وحين تركته وأدرت بصري في الحجرة ورأيت المكاتب الخاوية التي تركها أصحابها، ودولاب الدوسيهات، والمروحة القديمة الموضوعة فوق الخزانة والتي كان يبدو أنها لم تستعمل منذ عشر سنين على الأقل وقد صنع التراب من نفسه عناكب من فوقها، والمصباح الكهربائي الذي له (برنيطة) من الصاج

والذي يتدلى من السقف حتى يوازي رأس فرحات المائل على أمامه من أوراق والناس المزدحمين حول الحاجز الخشبي والذين يكونون خليطاً ـ أن تنافر في أشياء ـ فأنه يتفق في نظرات القلق والحزن الغاضب والوجوه المتقبضة الجامدة. كان معظمهم متهمين عائدين من تحقيق النيابة وتضمهم سلسلة حديدية طويلة، تبينت بعد حين أنهم لا يقيمون وزناً للسلاحليك أو السلسلة أو الصول فرحات نفسه، فشختطه تقابل أحياناً بزمجرة وأحياناً برد لا يقل عنها قسوة، حتى انفجر أحدهم مرة لأن فيشه وتشبيهه لم يكن بعد قد جاء من تحقيق الشخصية وكان عليه لهذا أن يمكث في الحجز بلا إفراج حتى يجئ، انفجر ولعن الدنيا والحظ والفقر والذين كانوا السبب، ولولا الملامة للعن الضابط النوبتجي هو الآخر. ولمحت الضابط النوبتجي الذي في فرحات يعاني الحرج الشديد وهو يسمعهم يهدرون ولكثرتهم وشراستهم وضربهم الدنيا صرمة لا يستطيع ـ كالضباط الحقيقيين في نظره ـ إخماد ضجتهم. ولما انتهى منهم ومضوا وعسكري في أول صفهم وعسكري في آخره، والسلسلة ترن وتصلصل وهم لا يزالون يصبون ويلعنون، تنهد فرحات تنهد الذي وضع أصبعه في الشق..

حين تركته وأدرت بصري لكل هذا وعدت إليه وجدته حينئذ يبدو عجوزاً جداً.. عجوزاً إلى الدرجة التي تحس معها أنه عهدة من عهد الحكومة عثرت عليه ذات يوم أثناء (كبسه) على الميري، وظل في مخازنها حرزاً من الأحراز، يبلى ويصبح كهنة ولا تبلى عليه من أختام.

وقال وهو يجوس بعينيه خلال الموجودين:

أف.. أقسم بالله الأشغال الشاقة أرحم من دى شغله.

وتوقفت عيناه علي وفيها دعوة واضحة وكنت أنا الآخر لي ساعات وأنا صامت فوجدت نفسي أقول:

- ايه الشغل.. الشغل كتير وإلا إيه؟

وكمن كان ينتظر الفرج من زمن رأيته ينفجر:

- يو هوه يا أستاذ.. هو ده شغل.. دا سرك.. دا موريستان.. الناس اجننت.. يعملوا ايه؟.. حيخس عليهم حاجة ؟! كله على دماغنا! والنبي أنا اشتغل في الحديد ميت سنة ولا أقعد هنا ساعة.. والأكاده أن كله كلام فارغ.. كله كدب.. تبالى وحياتك.

اللي معور نفسه.. واللي ضاع منه شاكوش.. واللي كان نايم قال وراحت طاقيته ونروح بعيد ليه؟ مش دي واقفة من الصبح؟ مالك يا بت؟! أبقى مش الصول فرحات أن ما قالت انهم ضربوها وأخدوا سيغتها!.. ما لك يا بت؟! فيه ايه؟!.

وكانت (البت) امرأة واقفة ضمن الواقفين، ترتدي ثوباً كان أسود ثم أحاله ساحر الحاجة إلى رمادي. وتتعصب بمنديل كالح لا يخفي إلا القليل من شعرها البني الاكرت القصير وقد تلوت نهاياته وتنافرت، وكان وجهها غامقاً أسمر، وفي عينيها كحل أفسدته الدموع..

وردت تقول في ذلة:

- أم سكينة والبت عيوشة وبنت أختها نبوتة والواد..

- ما لهم؟! ما لهم؟!

- اتلموا علي وضربوني في بطني.. آه يانا..

وفي ومضة خاطفة كانت في حالة بكاء تام، وأضافت والدموع والشهقات تختلط في حلقها..

ـ وأم سكينة.. عضتني.. هنا.. في كتفي.. وزغدتني في بطني..
والبت عيوشة قلعتني الحلق..

وقهقه الصول وخشخش صوته وقال:

ـ شايف يا أستاذ؟ شايف؟! مش قلتلك؟! كله وحياتك كدب..
نصب واحتيال.. بقى بزمتك دي حيلتها البلى الأزرق؟! حلق ايه يا بت
اللي خدوه؟! حلق حوش؟!

ـ حلق دهب يا بيه وغويشتين..

والتفت الصول الي وقال بلهجة ذكرتني بنجيب الريحاني:

ـ تفتكر والنبي مين المجني عليه في الحكاية دي.؟!

ـ مين؟!

ـ أنا! .. أنا يا فندم.. ما هو الكدب العلني ده يبقى سرقة
بالاكراه.. ومحضرها المصيبة من صورتين، والمصيبة الكبرى أن أنا اللي
حاكتب الصورتين..

واستدار إلى المرأة، ولسعها بنظرة كاوية فيها آثار من لمعة
الضحك، وأمسك القلم وفتح دفتر المحاضر الكبير وكأنه يفتح بوابة
المتولي وقال:

ـ هه.. الهي وانت جاهي ربنا ياخدكم ويخدني معاكم خليني
استريح..

ولما انتهى من كتابة مقدمة المحضر سألها:

ـ اسمك ايه يا بت؟!

ولم ينتظر أن تجيب أو يحفل باجابتها وواجهني مستأنفاً كلامه،
وأنا أحس أنه يحدث نفسه أكثر مما يحدثني:

أنا والنبي المجني عليه... ومش في الواقعة دي بس... في ألف واقعة... في دشليون... يمكن ما تصدقش... اتفضل آدي دفتر الأحوال... اصطبحنا بهتك عرض في الطريق العام و٥٩٢ اللي بعدها نشل حافظة نقود قال فيها قال ١٤٧ جنية و٨٣ صاغ وورقتين بوسطة... أقسم بالله ما كان فيها إلا الورقتين ويمكن لجل الحلفان خمسة تعريفة كمان، واللي بعدها قال سرقة نحاس... قايلين في البلاغ إن النحاس وزنه ٥٠ رطل ومتهمين الخدامة... حتى بت قد كده... متطلعشي كلها على بعضها عشرة أرطال... وغيره وغيره... ما لصبح وأنا إيدي وقفت من الكتابة... وكله ملاليم وكلام فارغ وكدب... يا شيخ فضك.

والتفت إلى المرأة يسألها:

- ما تنطقي يا بت... اسمك إيه؟

وقبل أن تجيب ضحك وقال كمن تذكر نكتة:

- واللا الجثة اللي لقيوها في الخرابة مالهاش صاحب... قصدي صاحبها مجهول... لقيوا السر الإلهي طلع منه كده لوحده ومن غير ما حد يكلمه... قوللي؟.. اشمعني بقى الخرابة دي يموت فيها؟... يعني ضاقت الدنيا في وشه... ما كنشي يتمشى لحد شبرا مثلاً؟ الله يرحمه مات... واتعذب أنا ليه؟! نهايته... كتب عليكم الهم والغم كما كتب على الذين من قبلكم...

وأدار رأسه إلى المرأة:

- يا وليه اسمك إيه؟...

- خديجة...

- خديجة إيه... انطقي...

- خديجة محمد...

- يا وليه تحركي... محمد إيه...

وقبل أن تجيب أرقد قلمه... وأسند كوعيه إلى الصفحة ووضع رأسه بين يديه وقال من تحت حافة (الكاب) والمصباح الذي أمامه يهتز كالبندول فيتحرك ظل رأسه على الحائط الذي خلفه، يتحرك رائحاً غادياً كفرد كبير:

- أنا المجني عليه والنبي... هي حكاية محضر؟! هو أنا عجزت من شوية؟! ثلاثين سنة خدمة وحياتك ويومياً بهذا الشكل... جبتها من المنزلة لعنيبة، ومن العريش لمرسى مطروح... وشفت اللي أدبح عشان عود قصب، واللي حرق جرن عشان كوز دره... الناس أجننت... هو الواحد شاب من شوية؟..

وأنهى كلامه فجأة، وانقض على يد كانت تمتد إلى المكتب وخبط عليها بعنف وعصبية قائلاً:

- قلتلك ميت مرة شوفلك نشافة تانية... هو ما فيش في القسم كله إلا دي؟.. أعوذ بالله إحنا في سوق النور؟

قال هذا، وانتظر حتى اختفى صاحب اليد مهيض الجناح والتفت إلي بوجهه الجاد المشدود الملامح:

والواحد يبقى حارق دمه... وأولاد الـ (...) ولا هاممهم وعمالين يهزروا...

وكان يشير بعينيه وهو يتكلم إلى حجرة التليفون حيث اجتمع بعض العساكر حول زميل لهم بدين مترهل وله كرش كبير، وكان بعضهم

بكتفه، والآخرون يحاولون جذب بنطلونه وإنزاله، والرجل يلهث ويناضل بكل ما يسمح به شحمه من قوة...

وبركن عيني لمحت الصول فرحات يبتسم ويضحك، ويقهقه. ثم ينسى كل شيء ويمد رقبته يتابع المعركة. وظهر عليه أسف حقيقي حين انتهت المعركة بانتصار صاحب الكرش وتخلصه ممن حوله، ورفع حينئذ صوته قائلاً بلهجة صعيدية خالصة:

- آه يا نسوان... ما قادرنشي على أبو كرش كليته (شغت)؟!

وما كاد يتم كلامه حتى فتح باب جانبي، وظهر المعاون في الفناء، وأصبح القسم فجأة أصم أبكم، وهبطت الصرامة تجمد كل شيء وقال الصول للمرأة في حزم:

- بتقولي اسمك خديجة محمد إيه؟..

وتركته يحقق، وشغلتني عنه دورية الليل وقد بدأت تتجمع في الفناء، وحين تجمعت بدا منظرها عجيباً... صفان من الظلام التام ليس فيه إلا بريق الزراير النحاسية الصفراء، وفوق الظلام نار من الطرابيش الحمراء الفاقعة... وأمام كل صف، صف آخر من الأيدي الممدودة تسند البنادق بلا حماس... وتسمع في الظلام همهمات، وضحكات تموت سريعاً كالشهب، وقد يشذ عن الأيدي الممدودة كوع ويلكز جاره.

وفتش عليها المعاون وأنفه - كالديك الرومي - في السماء، وعينه على زرار لا يبرق أو حذاء نفض عنه بعض سواده، وراح وجاء ثم دخل حجرته، والظاهر أنه تعشى فقد خرج وهو لا زال يمضغ وعلى شفتيه لمعة، وفتش مرة أخرى وهو يجفف يديه بعد أن اغتسل...

واندكت الأرض بالأحذية وكعوب البنادق مرات، وعوقب بعض

وكدر آخرون...

ثم...

جنبان سلاح و... كتفان سلاح... و... دورية... معتدان مارش...

وخرجت داورية الليل تئز وتتمايل، وفي آخرها العسكري البدين يحاول عبثاً أن يوفق بين جسده غير المنتظم وخطواته المنتظمة...

وأصبح فناء القسم بعد خروجهما خاوياً كعربة قطار الليل حين يقترب من آخر محطة، وعدت إلى الصول فرحات فوجدته لا يزال يحقق مع المرأة ويسألها:

- اتلموا عليكي فين؟..

- جوه السيما...

وإيه اللي دخلك السيما يا بت؟..

- محمود...

- محمود مين؟..

- محمود!!..

وهنا بدت على الصول فرحات صعيديته، وسألها، وجبهته معقودة، دون أن يكتب في المحضر:

- محمد دا إيه يا بت؟!..

- ابن خالتي...

ووضع القلم من يده وهو يقول:

- آه يا بلد كابوريا يا ولاد الـ...

وأخرج من جيبه علبة صفيح قديمة من التي تباع فيها السجائر الغالية، ولمحت فيها سيجارتين سادة، وواحدة بفله، وعلبة كبريت.

وأشعل السادة، وغمغم بأشياء مبهمة تمس الآباء والأجداد، وإنجاب الإبهام حين قال لنفسه:

ـ سيما... هه... قال سيما قال؟!.. وتدخلوا السيما تنيلوا إيه؟!.. هو إنتو بتاع سيما؟!..

وانفلت من حديثه لنفسه يسأل المرأة وقد ثنى ظهره إلى الوراء ووضع ساقاً فوق ساق:

ـ وتدخلي سيما يا بت مع واد زي ده ليه؟..

وبحث بعينه ناحيتي ولعله كان يود أن يشهدني على إجابتها فقلت له:

ـ إيه... هو المحضر لسه؟..

ـ آه... لسه... هو هيخلص؟.. حاضر... أنا عارف إني عطلتك... دقيقة واحدة وأفضالك...

والظاهر إنه حسبني شاكياً أو مبلغاً... ربما هذا... وربما وجدني أصلح مستمعاً يفضفض لي بما عنده في ليلة من لياليه الطويلة فآثر أن يؤجل انصرافي... وكتب شيئاً وهو يبتسم ويقول لي:

ـ وادي إنت بتتسلى... مش بزمتك أحسن ما لسيما؟

وتنهد وسأل المرأة...

ـ هيه... وطليقك سلط عليكي لهي؟ تروحو السيما تنيلو إيه؟.. ما تتكلمي يا بت طليقك سلط عليكي ليه؟..

ـ أصلي واخده عليه حكم نفقة...

وكتب كلمة أو اثنتين والتفت إلي بنظرة فيها استنكار:

ـ روايات؟! سيما؟! روايات إيه اللي بيعملوها دي؟! يبلوها

ويشربوا ميتها أحسن؟!

- ليه مبتعجبكش؟...

- تعجبني؟! تعجبني إزاي؟! الفيلم لازم يملا مخ الواحد... إنما إيه المسخرة والرقص اللي لا تجيب ولا تودي...

وأمسك القلم ووضع سنه على الدفتر وبدلاً من أن يكتب قال لي بفتور:

- أنا مثلاً لما قرفت من الروايات عملت مرة فيلم...

ولم تجعلني قلة حماسته أصغي إليه تماماً، ولكن كلامه وقع في أذني موقعاً غريباً فقلت:

- عملت إيه؟..

- عملت فيلم... رواية...

- عملته إزاي؟ مثلت فيه والا إيه؟!

- لأ... فيلم ألفته مخصصو عشان السينمات...

وكدت أستخف بالأمر كله وأضحك، فقد اعتقدت أنه لا بد شاهد حادثة أو جناية من الجنايات التي تحفل بها حياته ويريد بسلامة نيته أن يجعلها فيلماً، فقلت وأنا أكتم ضحكي:

- فيلم إيه بقى؟

فقال ببساطة ودون أن يتنحنح أو يعتدل أو يضع القلم، أو حتى يلقى بالاً إلى المرأة والناس الذين عند الحاجز.

- كان واحد هندي جه يزور مصر... راجل غني قوي... من الجماعة اللي عندهم فلوس قد الفقر اللي عندنا... الراجل جه... وقعد في لوكاندة فخمة قوي زي ما تقول لوكاندة مينا هاوس واللا شبت... وكان

فيه جدع غلبان زي حالاتنا كده...

وانتبهت حواسي كلها فجأة...

وملت على السور كثيراً حتى لا تفوتني كلمة من كلماته...

وأقبلت امرأة تستغيث في شبه صراخ، وكانت بيضاء حلوة وحواجبها مخططة بعناية فائقة، وزمجر فيها الصول فرحات:

- ما لك يا وليه؟.. مالك؟!.. القيامة قامت؟!..

- الحق يا خويا... الحق... الواد موت أمه م الضرب!

- واد مين يا وليه؟!

- الواد ابن جارتنا...

- وإحنا مالنا؟!

- يوه... مش إنت يا خويا النبي حارسك البوليس؟!

- وهو يصح أن البوليس يدخل بين الواد وأمه؟

- يه... ولماي موتها الدلعدي يا خويا؟!

- تبقى تفرج... نبقى في الحالة دي نروح نمسكه...

ويئست منه المرأة، فانتحت ركناً قصياً بالعسكري الذي كان يحرسني، وراحت تهمس له بالقصة، وتهمس له أكثر بحواجبها، ثم غادرت القسم والعسكري ساهم وكأنما أعجبته همسات الحواجب.

وعاد إلى الصول فرحات وقال:

- أما مصايب صحيح... واد قال؟!.. بس... الجدع الغلبان ده كان خالي شغل... يعين زي ما بيقولوا موظف في كوبانية الشمس... يعبي الشمس طوال النهار في قزايز ويسرح بيها في الليل... هئ... هئ... أمال؟!... آه... فتك في الكلام... الراجل الهندي ده مرة طالع م

اللوكاندة فوقع منه فص ألماظ يسوى النهاردة بالميت سبعين تمانين ألف جنيه، شافه الجدع المصري قام واخده ومديه للغني الهندي...

ـ فص إيه يا راجل يا بكاش؟

والتفتنا سوياً، وكان الذي قال هذا شاويش طويل معه دوسيه ما لبث أن سأل فرحات:

ـ عملت إيه في المتوفي المجهول الاسم؟

وهب فيه فرحات:

ـ حاعمل إيه يعني؟ امشي في الشارع أقول يا للي ضايع له ميت؟!..

ـ أنا رحت المستشفى وشفته...

ـ تشرفنا...

ـ شوف يا سيدي عينيه عسلية وشعره شايب وعلى صدغه الأيمن...

ـ وبتقول لي الكلام ده ليه... هو أنا بعتك تخطبه؟.. روح شوف شغلك أحسن... عسلية إيه يا بو طويلة يا هايف؟

ثم التفت إلي قائلاً: الراجل الهندي جه يدي للمصري فلوس، إلا رأسه وألف سيف ما ياخد ولا مليم، يهديك يرضيك ما فيش فايدة فكبر قوي في عين الهندي وأكيف منه تمام... راحت الأيام، وجت الأيام، وروح الغنى بلده وهو محتار يجازي المصري ده إزاي فلقى أن أحسن طريقة إنه يشتري باسمه ورقة لوتريه... تعرف البريمو كانت تكسب كام؟ وإلا ستنى أما نشرب شاي...

وصفق كثيراً حتى جاء صبي البوفيه، وطلب الشاي واختلف معه طويلاً على الطلبات التي تناولها في يومه، الصبي يقول ثلاثة وهو يقول

اثنين، ولم ينته الخلاف حتى بإحضار الشاي.

وسمعنا باب المعاون وهو يفتح، والمعاون يخرج ويقف في الفناء ويتمطى وعاد فرحات يسأل المرأة:

- هيه... إيه الحكاية؟

- لما خدت عليه الحكم... لف عليَّ عايزني أتنازل... مارضيتش فبعتلي أمه وأخته وبنت خا...

- هوس... كفاية لحد هنا... واتلموا عليكي في السيما؟

- ايوه وفضلو يضربو فيه لما كانو حيسقطوني...

- إيه؟!

- أصل أنا حامل في ست أشهر...

وترك الصول فرحات المحضر وقد استولى عليه حب الاستطلاع وأعجبته القصة وسألها:

- يخرب بيتك... حامل من مين يا بت؟!

- منه يا بيه... من طليقي...

- إمتى؟!

- قبل ما يطلقني...

- وجوزك ده طلقك ليه وإنت حامل...

- عشان وقع على اليمين...

- يمين إيه؟ وطلقك إمتى؟

- ليلة أول رمضان اللي فات... كسرت قلة أمه وأنا قايمة اتسحر فحلف طلاق بالتلاتة ليكسر قصادها دراعي!..

- وكسر دراعك؟..

ـ لا... طلقني...

ـ أنا قلبي كان حاسس والنبي... بقى قلة أمه هي السبب؟ بقى عشان قلة أمه اكسرت في رمضان اللي فات يتحرق دمي النهاردة طوال اليوم... قلة تمنها ساغ يا عالم أروح أنا ضحيتها؟ اسمعي يا بت؟ هل لديك أقوال أخرى؟ عايزة تقولي حاجة تانية؟..

ـ أيوه يا بيه... عيوشة هي اللي مقلعاني الحلق... وأمها هي...

ـ أف... يا بت أقوال أخرى غير اللي قلتيها؟!

ـ هو أنا لسه قلت حاجة...

ولم أتمالك نفسي فضحكت و تحول غضب الصول هو الآخر إلى قهقهة عالية وانتهى من المحضر، وتنهد، وتثاءب، وهز رأسه...

وخرجت المرأة ومعها خطاب للكشف عليها، ولدهشتي خرج معها كل الناس الواقفين...

ـ هيه... كانت البريمو تكسب كام؟..

ـ إنت لسه فاكر... تكسب مليون جنيه... ما هي كانت غالية كمان!

واشترى ميت ورقة عشان يضمن المكسب، وجه السحب، واحدة منهم كسبت البريمو..مليون من غير الضريبة، وفكرشي الراجل إنه يطمع هليها ولا حد شاف ولا حد دري؟ أبداً... عمل إيه؟ راح شاري غليون بضاعة كبيرة قوي... ووسقه حرير هندي من اللي على أصله... واشي عاج... واشي ريش نعام... واشي جوخ وكشمير وما بوليا محترمة... وراح باعت المركب بالطقم بتاعها باللي عليها على اسكندرية، وراح باعت عقد البيع والبوليصة خالصة كل حاجة لصاحبنا

على مصر... يعني ما عليه إلا يستلم...

وهب... وصلت المركب اسكندرية... حاجة باسم الله ما شاء الله... وبتاعت مين يا جماعة؟.. بتاعت فلان... بالاختصار الراجل باع البضاعة اللي عليها واشترى بيها مركب تانية، وخلى مركب رايحة بلاد بره شاحنة، ومركب جاية شاحنة، وإذا كان حتى الطرد اللي قد كده الواحد بيخلص عليه في السكة الحديد بكذا... شوف بقى مركب زي دي تكسب قد إيه في السفرية...

واندفع في هذه اللحظة إلى الداخل رجل قصير نحيل يرتدي جلباباً كله زيت وبقع، ورأسه عارية... ويرتدي قبقاباً له صوت مزعج، اندفع كالسهم داخلاً وهو يقول وعلى وجهه ألم عظيم:

- يا فندي... يا فندي...

وضايق دخوله الصول فرحات وكأن أحدهم قد صوب إلى أرنبة أنفه لكمة فاستدار إلى الرجل وأرعد فيه:

- ما لك؟!

- ما ما ليش يا فندي... واد ابن حرام حدف طوبة كسرت لوح القزاز بتاع بترينة الدكان... لوح القزاز اللي معرفشي أجيبه النهاردة... بنور بلجيكي من الأصلي اللي قبل الحرب... تلاتة متر في تلاتة... روح الله يخرب بيتك يا بعيد زي ما خربت بيتي...

- دكان إيه؟!..

- بقالة المودة والإخاء في الشارع العمومي...

- عارفها... اللي عالناصية قدام الجاراج؟..

- أيوه... إلهي يعمر بيتك... ربنا ما يوريك...

ـ والبترينة نهين اللي كسرت... اللي عالشارع والا التانية اللي ع الحارة...

ـ الكبيرة يا فندي اللي ع الحارة.

فقال الصول وهو ينفض يده من الأمر ويستعد لمتابعة الرواية:

ـ تبقى مش تبعنا... تبع بولاق...

ـ يا فندي اعمل معروف...

ـ قلتلك مش تبعنا... روح قسم بولاق...

ـ يا فـ...

ـ روح... جك ريح خماسي...

واندفع الرجل يقبقب خارجاً كالسهم، وانتظر فرحات حتى اختفت دقات القبقاب ثم رجع محاولاً أن يستعيد الجو الذي عكره البقال...وثنى ظهره إلى الوراء كثيراً ومال الكرسي لانثنائه... وخلع الكاب وأمسك به في يده... يديره أحياناً وأحياناً يهف به وقال:

ـ الراجل كان طهقان قوي من مراكب الخوجات، ففي ظرف سنة ربنا إداله واتسع قوي... وحبه بحبه راح شاريلك مراكب اسكندرية كلها... وما أصبحشي فيه مركب إنجليزي... طلياني... تلياني... كله رفع العلم الأخضر...

ولاحظت أن ملامح الصول فرحات قد تراخت، وانزاح عنها كل ما فيها من صرامة واشمئزاز، واتخذت طابعاً عجوزاً راضية وعيناه هامتا في سماء الحجرة كفراشتين حالمتين وصوته خلى من كل تشويش، وحفل بنشوة طارئة حلوة كانت تخرج الكلمات من فمه لذيذة وكأنها محلاة بعسل النحل، فلا تملك إلا أن تحبها، وتحب رعشتها الممتلئة بالرنين وهي

تنساب في تؤدة من خلال السكون الحزين الذي خيم حتى أصبح القسم كسرادق المأتم في آخر الليل حين لا تسمع فيه إلا فحيح الكلوبات... وهمسات المعزين:

- وأصبح للراجل مراكب لا تحصى ولا تعد... أصغر ما فيهم تيجي قد القسم ده عشرة خمستاشر مرة... يسكتشي على كده؟.. أبداً... الفلوس ما لحستشي عقله فراح شاري بالإيراد بتاع المراكب مصنع نسيج كبير قوي... وشغل فيه ييجي نص مليون عامل... بعد شهر واحد مصنع النسيج عمل مصنع قزاز... والقزاز عمل مطاحن... ومضارب رز... وبعد كده اشي محالج واشي سكر... واشي جاز... واشي ورق... واشي مكن... واشي صلب... المهم إنه جه يوم عليك امتلك فيه مصانع مصر كلها...

وما عجبوش الحال الملخبط ده فراح لامم المصانع وبناها على حتة تطلع ألف فدان لأ... ألف إيه؟.. هي الألف تنفع... يجي عشرة آلاف فدان خمستلاف منهم مصانع والخمستلاف التانية سكن فيها العمال... مش سكن كلشنكان... لا... سكن... بيت... بجنينة ببلكونة... وحاوي مما جميعه حتى فيه عشش الفراخ والأرانب... ومش بس كده... كان ما يخدش من عرق العامل حاجة... اشتغل بخمسة ياخد خمسة... بعشرة بعشرة... ما هو لا مؤاذخة في دي الكلمة العامل لما ياخد اللي يقضيه... يشتغل ويتفرعن في الشغل... واحنا شعب وارث الفرعنة أباً عن جد... فبدل ما يطلع متر... يطلع مترين... وبدل جزمة... جوز جزم مهو كده... هات وخد... اديني حقي وخد حقك... إنت راخر العامل أصبح حاجة تانية... هدوم نضيفة أربعة وعشرين قراط... عفريتة

مكوية يروح بيهـا الشـغل... ويـيـجي بعـد الضـهـر يلبس بدلـة الأيافـة والطربوش النسـر والجـزمـة الإجلسـيـه... وقـهـاوي إيه وجنايـن إيه... وكـازينات إيه... وأبهــه إيه... والناس بقــوا حلوين... وفــرحــانين ومبسوطين... ولا قـرف... ولا بلاوي... طول النهار ضحك وفرفشة... والليل يروحوا السيمات... والسيمات دي مهمة قوي... في كل شارع سيمـا... وبالأمـر لازم كل كبـيـر وصغـيـر يـخش... والأفـلام... أفـلام تمام... وبوليس... مفيش بوليس... العسكري بدل ما يتطلع ٨ ساعات في الداورية... له كشك قزاز في قزاز... في وسط الشارع... ومكتب صغير... واللي عايز حاجة يجيله...

استنى بقى لحسن الواغش بعيد عنك جه... أما نشوف... غيراد النهاردة حيبقى كام...

وحقيقة كنت اسمع الضجة القليلة التي أخذت تترى من ناحية الباب ولكنني كنت أنا المنساق هذه المرة وراء ما يقوله فرحات وما ذهلت له تماماً...

والتفت ناحية الباب فوجدته قد ازدحم بأربعة مخبرين أو خمسة طوال عراض أيضاً ويرتدون اللبد، وقد أمسك كل منهم في كل يد من يديه قبضة أطفال مشردين، ومتسولين عجائز وكل منهم يجر ما في يديه جراً وقد ربط جلباب الطفل في جلباب الآخر... وكان المخبرون يبدون كالعمالقة الطوال، والأطفال يبدون بجوارهم قصاراً صغاراً كالكتاكيت المذعورة، وعبروا الفناء، ووصل ركبهم إلى السور الخشبي وكذلك وصلت ضجتهم فأنهى الصول فرحات كل الأصوات بقوله:

ـ بس... اخرس إنت وهوه... وقفهم طابور يا بوطه قدامي... بطل

كلام عمى في عنيك...

وذهب باقي المخبرين، واصطف الطابور في سكون...

ورجع الصول فرحات إلى الوراء كثيراً وهو لا يزال في نشوته فقلت:

ـ وبعدين...

ـ ولا قبلين... حالاً مكن من ألمانيا جه... والمهندسين والعمال اشتغلت... وراحوا زارعينلك الصحرا كلها... شوف بقى الرملة دي كلها لما تزرع؟.. الإكس يمشي فيها سبع تيام ما يحصلش آخرها... وأهم من ده وده إن ما فيش قوله حاجة اسمها توابيت... محاريت... سواقي... كلام فارغ من ده... كله مكن... الري بمكن... والدراس بمك... والسباخ بمكن... وحتى كان فيه مكن يجمع القطن ويحش البرسيم... والفلاح اللي عليه العمل... مفيش فولة جلابية... طاقية... بشت... أبصر إيه معرف إيه... أبداً... كله بدل... بنطلونات كاكي لحد الركبة... وبرانيط بيضة نظيفة وجزم بنعل دوبل ما يدوبش أبداً والفلاحين يسرحوا طابور... يشتغلوا لغاية الضهر بس وبعدين يرجعوا طابور... والنسوان كذلك... بس دول في غيط دول في غيط... والبيوت كلها حجر... ولمض جاز تبطل خالص... كله كهرباء والسحب على صاحب الأرض... وكل صف بيوت له ميز ياكلوا فيه ويرجعوا لبيوتهم يقيلوا وبعدين العصر طابور على المدرسة يقروا ويكتبوا ويعرفوا اللي لهم من اللي عليهم. بس يا سيدي ما طولشي عليك الراجل من كتر الفلوس لما تبقى بالشكل ده الواحد لازم يقرب منها اللي ياكل تفاح كل يوم بيقرف منه... ففي يوم من الأيام... أعلن في الراديو...

أبوه... مهو نسيت أقولك إنه عمل محطة إذاعة... وعمل ليها في كل بيت من البيوت وصلة... أعلن في المكرفون إنه متنازل عن جميع.

وكان الصول فرحات ينظر إلي ويقول كلماته الأخيرة وكأنه يفكر في مشكلة أخرى...

وقال للعسكري فجأة:

- إنت واقف بتعمل إيه يا جدع؟! إنت ما وراكشي شغل؟!..

وقال العسكري في صوت متقطع:

- أصل... الأ... الأفندي... أنا مستلمه...

- مستلمه؟! ليه؟!

- حرس عليه...

واستدار إلى الصول فرحات وألقى علي نظرة ما رأيتها منه قبل الآن، واستمر يحدجني طويلاً، ولا ريب أنه لم يجدني أصلح كي أكون قاتلاً أو سارقاً أو خاطف طفل ولست أدري ما كان يعينه حين قال في بطء وشك كثير:

- أه. الأفندي ده. هوه إنت منهم؟..

فقلت وأنا ابتسم:

- من مين؟.. المهم... الراجل أعلن إيه في الإذاعة؟..

واستمر ينظر إلي ثم قال بصوت تائه:

- آه... والله مانا فاكر... يا شيخ فضك... أهو كلام... إنت بتصدق؟

ثم شد جلد وجهه حتى عاد كالطبلة الصارمة، وجذب (الكاب) حتى بلغ موضعه التقليدي من جبهته تماماً، وهوى على (المتسول)

العـجـوز الواقف في أول الصف بنظرة صـاعـقـة من عـينيـه، وانطلقت جعجعته المعهودة:

ـ ما تنطق يا بجم... اسمك إيه؟!

يوسف إدريس

المصدر: جمهورية فرحات «مجموعة قصصية» ـ الكتاب الذهب ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ ـ ط.١

فهرس



لوحة الغلاف للفنان غسان جديلة

ISBN: 2-84305-474-x
9782843054747